٢٨

كِنْزَبورُو أوي



ترجمة :
وَديع سعَادة



مؤسسة الأبحاث العربية

كِنْزَبورُو أوِي



ترجمة : وَديع سعَادة



مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب : ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* كِنْزَبورو أوي : مسألة شخصية

* الطبعة العربية الأولى: ١٩٨٧

* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.

ص. ب ١٣/٥٠٥٧ (شوران) بيروت ، لبنان

هاتف: ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا، لبنان

— IAR (RAWAFID) Ltd.

P. O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel. (357) 2- 452670, TLx. 5223 Rawafid - Cy.

* تصميم الغلاف: **نجاح طاهر**

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية:

KENZABURO Oé KOJINTEKINA TAIKEN

- ١ -

أرسل «بيرد» تنهيدة قصيرة وهو ينظر إلى خريطة أفريقيا المعروضة في الواجهة، والتي تذكّر بالأناقة المتعالية لأيّل يستريح. لم تنتبه إليه البائعات. بشرة أعناقهن وأذرعهن العارية تركت فيه قشعريرة. كان المساء يقترب وحمّى بداية الصيف انخفضت فجأة كحرارة عملاق مات. وكان الناس بلهاثهم الغامض كأنهم يتذكرون رغماً عنهم حرارة منتصف النهار التي بقيت عالقة على أجسادهم. حزيران، الساعة السادسة والنصف - لا أحد في المدينة الآن لا يعرق. ولكن هذه اللحظة، كانت امرأة «بيرد» نائمة عارية على مخروط من الكاوتشوك، عيناها مغمضتان مثل طير تُدْرُج صريع ساقط من الفضاء، وكانت تنتحب من الألم، من الجزع، من الانتظار، وجسدها مغطى بنقاط العرق.

ارتعش بيرد ونظر أفضل إلى تفاصيل الخريطة. الأوقيانوس حول أفريقيا أزرق مختلط بسماء شتائية عند الفجر. لم تكن خطوط الطول والعرض بدقة بركار ميكانيكية: الخطوط الضخمة تفسر حيرة الفنان وتردُّده. القارة نفسها تشبه جمجمة رجل برأس مائل، ينظر بعين حزينة إلى أوستراليا، «أرض الكُوال»[١] وخلد الماء والكانغورو. مصغَّر أفريقيا، الذي يشير في زاوية سفلية من الخريطة إلى كثافة السكان، كان يذكّر برأس مقطوع بدأ يتحلّل؛ مصغَّر آخر، مُعرَّق

---

(١) حيوان متسلق يشبه الدب يعيش في أوستراليا.

بالطرقات، كان رأساً مسلوخاً وُضعت أوردته في العراء. هاتان الأفريقيتَان الصغيرتان كانتا توقظان أفكاراً عن موت فظّ عنيف.

- تريد أن تستوضح الأطلسي؟

أجاب بيرد:

- لا، لا حاجة إلى ذلك، كنت أريد خرائط «ميشلان» عن أفريقيا الغربية والوسطى وأفريقيا الجنوبية.

مالت الفتاة على دُرج مليء بخرائط «ميشلان» وراحت تقلّب فيها بانهماك.

أوضح بيرد بثقة خبير أفريقي: رقم ١٨٢ و ١٨٥.

الخريطة التي كان يتحرَّق عليها كانت جزءاً من أطلس كبير مجلَّد يصلح لتزيين طاولة في مقهى. بعد أسابيع، سأل بيرد عن الثمن: خمسة أشهر من راتبه في المدرسة الثانوية حيث كان يعمل كناظر دروس. لو أضاف إليها المال الذي يمكن أن يكسبه كمترجم في أوقات إضافية، لتمكن من شرائها في غضون ثلاثة أشهر - لكن عليه أن يؤمن قوت زوجته، وقوته هو، وقوت الطفل الذي يولد الآن. بيرد، اليوم، هو ربُّ عائلة!

وضعت البائعة الخريطتين على المكتب. كانت لها يدان صغيرتان، غير نظيفتين تماماً. أصابعها النحيلة تذكّر بقوائم حرباء متعلقة بشجرة. وقع نظر بيرد على علامة المصنع تمهر الخريطتين: رجل ضخم من الكاوتشوك يدفع إطاراً، كأنه يجعل هذا الشراء مضحكاً - ولكن بالنسبة إلى بيرد، هاتان الخريطتان لهما أهمية كبيرة.

سأل: لماذا الأطلس مفتوح على هذه الصفحة؟

لم تجب البائعة التي بدا عليها الارتباك.

لماذا الأطلس مفتوح دائماً على هذه الصفحة؟ هل كان يعتبر المدير أن خريطة أفريقيا هي الأجمل في المجموعة؟ لكن أفريقيا كانت تشهد تحولات

غير عادية تجعل بسرعة أية خريطة تنطوي على مغالطة تاريخية ـ فأن يفتح ذاك على تلك الصفحة كان يعني بطلان البقية ما دام التبدل الذي يبدأ في أفريقيا سيشمل كل الأطلس. ما كان يجب هو خريطة لا تبطل أبداً يكون معها رسم الحدود السياسية نهائياً. أميركا، إذاً؟ أميركا الشمالية بالتحديد؟

دفع بيرد ثمن الخريطتين واتجه نحو الدَرَج. مرَّ خافض العينين بين نبتة في أصيص وعاء من البرونز مكتنز المعالم يلمع بطنه بعرق جميع الأيدي التواقة التي داعبته. بيرد نفسه، عندما كان طالباً، اعتاد أن يمرّر أصابعه على هذا البطن البرونزي حين كان يمرُّ من أمامه؛ اليوم، لا يتجرأ حتى على النظر في وجه هذا التمثال. فكّر لثانيةٍ في الطبيب والممرضات يطهّرون أيديهم أمام الطاولة حيث رأى امرأته ممددة، عارية تماماً. كانت ساعدا الطبيب مغطاة بالوبر الأسود.

دسَّ بيرد الخريطتين في جيب معطفه واتجه نحو الباب وهو يشدُّهما إلى خاصرته. إنهما الخريطتان الوحيدتان اللتان يشتريهما على أمل أن يستعملهما في أفريقيا. تساءل، بضيق، إذا كان سيأتي اليوم الذي يضع فيه قدمه فعلاً على الأرض الأفريقية حيث سينظر إلى سماء أفريقيا من خلال نظارتين شمسيتين. أكان في هذه اللحظة نفسها، ربما، يفقد كل حظ في الذهاب؟ هل سيكون مجبراً على وداع رغبة شبابه الوحيدة واللجوجة رغماً عنه؟ ولكن ماذا كان يمكنه إذن أن يفعل بها؟

دفع باب المخزن غاضباً ووجد نفسه في الشارع. بدا الرصيف غارقاً في الضباب بسبب الهواء الملوَّث وغبش المساء، توقف بيرد لينظر في الواجهة. كان يشيخ بسرعة عدَّاء. بيرد: سبع وعشرون سنة وأربعة أشهر. لقّبوه بـ «بيرد» [1] عندما كان في الخامسة عشرة ورافقته هذه الكنية. هذا الشخص الطافي بغرابة في بحيرة الحبر على الواجهة، كجسد غريق، كان دائماً يشبه عصفوراً. صغير وهزيل. بدأ رفاقه يسمنون ما إن تخرجوا من المعهد ونالوا

---

(١) «بيرد» تعني عصفور بالإنكليزية.

وظيفة ؛ وحتى هؤلاء الذين ظلوا نحيلين اكتسبوا وزناً حين تزوجوا. أما بيرد فبقي هزيلاً كالسابق. سواء مشى أو ظلَّ جامداً، يبقى محدودباً قليلاً، بكتفين خفيفتي الإنحناء، مثل رياضي قديم تحوّل عجوزاً ضامراً. ولكن ليس هذا وحده ما كان يعطيه هيئة عصفور: أنفه المسمرُّ اللامع المعقوف يشبه منقاداً؛ عيناه البراقتان، الغامضتا اللون، لا تعبّران أبداً تقريباً عن انفعال، سوى دهشة مبهمة أحياناً؛ شفتاه النحيلتان مشدودتان دائماً، ووجهه، من أعلى وجنتيه إلى ذقنه، له شكل ٧ مقرّنة. هكذا كان بيرد في الخامسة عشرة. لم يتغير شيء في العشرين. كم من الوقت بعد سيبقى يشبه عصفوراً؟ هل هو من هؤلاء الناس الذين يحافظون على الوجه نفسه والمظهر نفسه من عمر الخامسة عشرة حتى الخامسة والسبعين؟ هل كانت الصورة التي يراها في الواجهة انعكاساً لحياته بكاملها؟ ارتعش بيرد واكتسحه تقزُّز شديد الحدة إلى درجة الرغبة في التقيؤ. أية رؤيا: بيرد عجوز، شيخ ضعيف، منهك، مع عشيرة من الأولاد...

فجأة، ظهرت في بحيرة الواجهة المعتمة امرأة غريبة المظهر وتقدمت ببطء نحوه. كانت طويلة، بكتفين عريضتين ـ طويلة حتى أنها تعلو رأسه. تولّد لديه انطباع بأنها مارد ينقضّ عليه واستدار. توقفت المرأة ونظرت إليه بوقار، ثم رأى في عينيها نوعاً من النهم يتحوّل إلى لا مبالاة كئيبة، كما لو أنها بعدما اعتقدت أنها اكتشفت وجود علاقة بينهما وانتظاراً مشتركاً، تنبهت فجأة إلى أن بيرد ليس الشخص الذي كانت تأمل. وهو، في الوقت نفسه، دهش بهذا الوجه غير العادي، المحاط بشعر مشبوك، كثيف جداً، ذكّره بملاك من ملائكة «فرا أنجيليكو». ولاحظ على الأخص الوبر الأشقر الذي نسته آلة الحلاقة فوق شفتها العليا بين ماكياج سميك.

ـ «مساء الخير»، قالت المرأة بصوت ذكوري واضح، حيث دوّت خيبة الأمل.

ـ «مساء الخير»، أجاب بيرد بصوت جهوري قليلاً، ناعب قليلاً، يلائم لقبه.

دار المتنكر نصف دورة وابتعد ببطء. تتبّعه بيرد لحظة بنظراته وأخذ الاتجاه المعاكس. تبع زقاقاً ضيقاً وبدأ يقطع بحذر شارعاً عريضاً تشقّه خطوط تراموي.

اعتقد اللوطي، حين رآه ينظر في الواجهة، أنه ينتظر أحداً ما وظنّه منحرفاً. كان الأمر مخزياً، ولكن عندما أدرك الآخر خطأه حين استدار بيرد، سلم شرفه، والآن يستطيع أن يتسلّى بهذا اللقاء. حتى انه شعر أيضاً بنزوة متعاطفة مع هذا الشاب المتنكر في امرأة. هل سيوفق الشاب في تحقيق رغبته الليلة؟ تساءل بيرد: هل يجب أن تكون لي شجاعة اللحاق به؟... تخيَّل ماذا يمكن أن يحدث إذا رافق الشاب. في تلك اللحظة سنكون على الأرجح نائمين عاريين، متلاصقين مثل اخوة، ونتحدث. سأخلع ملابسي أنا أيضاً لئلا يشعر بحرج كبير. سأقول له أن امرأتي تضع طفلاً الآن، وربما سأعترف له بأني منذ سنوات أرغب في الذهاب إلى أفريقيا، وأن حلمي حين أعود أن أكتب رواية عن مغامراتي أسميها «سماء أفريقيا»، ولكن سيكون مستحيلاً بلا شك أن أذهب وحدي إلى هناك حين أصبح سجين عائلة (في الحقيقة أنا في القفص منذ زواجي، ولكن كان يبدو لي حتى اليوم أن باب القفص مفتوح دائماً؛ هذا الطفل الذي يولد الآن يمكنه فعلاً أن يقفله إلى الأبد...). سأتحدث عن كل الأشياء، وسيجهد المتنكر لوضع ما سأقوله في سياق متتابع، وبلا شك سيفهمني، لأن صبياً بهذا الإخلاص لشيطانه الداخلي، إلى درجة اصطياد المنحرفين في الشارع، يجب أن تكون له عينان حساستان وأذنان حساستان وقلب حساس إزاء المخاوف التي تطوف المناطق المظلمة للشعور الباطني.. وغداً صباحاً سيكون في وسعنا أن نحلق معاً ونحن نستمع إلى الأخبار في الراديو، متقاسمين الصابون نفسه. إنه فتى، غير أن لحيته تبدو قاسية و... توقف بيرد عن الأحلام وابتسم. من غير أن يذهب إلى حد قضاء الليل مع المتنكر، عليه على الأقل أن يقدم له كأساً.

كان يمشي الآن في شارع حيث بارات الدرجة الثالثة عديدة والسكارى كثيرون في الحشد الذي يتدافعه. كان حلقه جافاً ويرغب في تناول كأس،

ولو لوحده، لكنه طرد هذه الرغبة. تخيَّل ردَّ فعل حماته لو وصل إلى حيث تستلقي زوجته ورائحة الويسكي تفوح منه. لم يكن يريد أن يراه أقارب امرأته سكراناً مرة أخرى.

حالياً كان والد زوجته يعطي دروساً في معهد صغير خاص، لكنه قبل تقاعده كان رئيس القسم الإنكليزي في الجامعة حيث كان بيرد طالباً، وبفضله نال بيرد وظيفة ناظر دروس رغم صغر سنه. إنه يكنّ المحبة والاحترام لهذا الرجل العجوز الذي يمتاز بنبل غير عادي، ولا يريد أن يخيّب أمله بلا طائل.

تزوج بيرد في الخامسة والعشرين من عمره، في أيار، وخلال ذاك الصيف الأول من زواجه لم يصح من السكر لأربعة أسابيع متتالية، مثل روبنسون مخبول يجنح على أوقيانوس من الكحول. أمضى نهاراته ولياليه ساجناً نفسه في مطبخ شقته، غالقاً الأبواب والنوافذ، مهملاً عمله ودروسه، يستمع إلى الأسطوانات ويشرب الويسكي غير مهتم بشيء. الآن وهو يستعيد الماضي، بدا له أنه لم يفعل أي شيء خلال شهر سوى الاستماع إلى اسطوانات، والشرب، والاستغراق في نوم ثمل. بعد أربعة أسابيع خرج من ساعات سكره السبعمئة الرهيبة تلك ليكتشف في نفسه، بوضوح أليم، حزن مدينة مدمَّرة بحرائق حرب. كان شيئاً أشبه بخلل عقلي طفيف الحظ في الشفاء، ولكن كان عليه أن يحاول إعادة تنظيم نفسه وعلاقاته بالعالم الخارجي. حينئذٍ كان قطع دروسه وطلب من والد زوجته أن يجد له وظيفة. اليوم، بعد سنتين، تضع امرأته طفلهما الأول - وغير وارد أن يذهب إلى المستشفى تحت وطأة الكحول.

كان بيرد يرتاب في هذه الرغبة الغامضة، المتجذرة في نفسه. غالباً ما تساءل، منذ سنة زواجه الأولى، عما دفعه إلى الشرب حينذاك ولم يكن يجد جواباً مقنعاً. وما دام هذا الهبوط إلى اللجة يبقى بلا تفسير، فمعاودة المجازفة تبقى قائمة. في كتاب عن أفريقيا كان يقرأه بلهفة، وجد هذا المقطع: «عموم أنواع السكر في المجتمع، التي لاحظها جميع المستكشفين، هي شائعة الآن في القرى الأفريقية، ما يدفع إلى الاعتقاد بأن الحياة في هذا البلد الجميل

تفتقد شيئاً ما أساسياً. إن رغبات عميقة غير محققة تدفع الأفريقيين أيضاً إلى اليأس أو الإهمال». كان بيرد، إذ يعيد قراءة هذه الأسطر المتعلقة بقرى السودان الصغيرة، يلحظ أنه لم يكن يتنبه كفاية إلى النواقص والرغبات غير المحققة في حياته هو. وبسببها كان من الفطنة أن يمتنع عن الكحول.

قصد أماكن اللهو في مركز المحلّة، حيث بدا أن كل صخب المدينة وحركتها يتجمعان هناك. ساعة حائط كانت تشير إلى السابعة. منذ الثالثة بعد الظهر، اتصل بيرد ساعة فساعة بحماته في العيادة. نظر حواليه. توجد تلفونات عامة لكنها جميعها مشغولة. ما يُغضب أكثر، ليس امرأته التي تتوجع الآن بقدر ما هي حماته المنتظرة اتصالاً هاتفياً منه. لو فقط يجد شخصاً آخر غيرها على الطرف الآخر... وبأمل ضئيل عاد على عقبيه، رامياً نظرة في البارات، في المطاعم، في محلات الأحذية، بحثاً عن هاتف غير مشغول. الأفضل أن يتحاشى الدخول إلى بار، وقد تناول طعام العشاء. لماذا لا يشتري «بيكربونات» ليهدّىء معدته التي تثير الغثيان؟

راح يبحث عن صيدلية - وبُهت أمام مؤسسة تثير الفضول في زاوية الساحة. على لافتة عملاقة معلقة فوق المدخل، يتربع «كاوبوي» في يده مسدس يقذف النار. وعلى رأس هندي أميركي ممدَّد على قدمي الكاوبوي قرأ بيرد اسم المؤسسة: «مرمى الزاوية». في الداخل، تحت أعلام الورق المطاطي الأخضر والأصفر، حشد مزدحم من الشباب أمام آلات عديدة تملأ القاعة. تقدم بيرد عابراً ماكنة كوكا كولا وآلة «جوك بوكس» راعدة ترسل لحناً قديماً من «الروك أندرول»، واثقاً من وجود تلفون في نهاية القاعة. شقّ طريقاً في الحشد كما لو أنه يتقدَّم في متاهة، بين طاولات البليار الكهربائية وألعاب الأسهم والرمي. كانت واحدة من ألعاب الرمي هذه تقدّم، كهدف، مجموعة من الأيائل والأرانب والضفادع الخضراء الضخمة، المتواكبة على حزام بلا نهاية. ورأى بيرد فتى يُسقط ضفدعاً وخمس علامات تسجَّل على عدَّاد الآلة.

بلغ الهاتف أخيراً، وضع قطعة نقود، وطلب رقم العيادة. سمع دقة التلفون البعيدة بأذن، وبالأذن الأخرى تابع سماع زمجرة آلة «الجوك بوكس»

وصخب الداخل الشبيه بعشرة آلاف عربة مجنونة ؛ كان المراهقون السكارى بألعابهم الأوتوماتيكية ينتقلون من لعبة إلى أخرى كاشطين خشبها بنعالهم الإيطالية «الناعمة كقفاز من الجلد». ماذا ستعتقد حماته في هذه الضوضاء؟ ربما عليه أن يشرح لها، معتذراً عن تأخره في الإتصال بها. . .

في الدقة الرابعة رُفعت السماعة. ودون أن يعتذر عما يجري، سألها عن أخبار زوجته.

- أيضاً لا شيء. المسكينة الصغيرة تعاني آلاماً شديدة، لكن الطفل لا يريد أن يأتي . . .

- سأتصل في الساعة الثامنة.

وأقفل الخط وهو يتنهد.

إلى جانب «كابين» الهاتف، كان يجلس صبيٌّ له هيئة فيليبيني أمام مقود «جاغوار» مصغرَّة، يحركها على شاشة يتغيّر ديكورها الريفي باستمرار، كأنها في أقصى سرعتها على الأوتوستراد، كان المطلوب تحاشي الأشياء التي تظهر في كل لحظة - خراف، قطيع بقر، أولاد يعبرون الطريق. كان الفيليبيني منحنياً على المقود، مقطب الحاجبين، مركّزاً على عمله، ويقضم شفتيه. وعندما بدأت الصورة تبطىء، دسَّ يده في جيب بنطاله وسحب قطعة نقود وأدخلها في ثقب الآلة. راقبه بيرد فترة طويلة، ثم اجتاحه شعور بالتعب لا يُحتمل واتجه نحو المخرج، حيث وقف قربه مبهوتاً أمام آلتين غريبتين.

تلك التي على اليمين كانت محاطة بزمرة من المراهقين المرتدين قمصاناً صوفية مطرَّزة بتنانين ذهبية وفضية، من نوع «ذكرى من هونغ كونغ» للسياح الأمريكان. التي على اليسار، ولم تكن في تلك اللحظة محاطة بالهواة، تُذكّر بآلة تعذيب من القرون الوسطى. تمثّل صبيَّة جميلة من الفولاذ، بالقياس الطبيعي، تضمُّ صدرها بذراعيها المتشابكتين. اللعبة تقضي بتفريق الذراعين لرؤية ثدييها المعدنيين. وحسب قوة اللاعب، يرتسم رقم في عيني الفتاة، وجدول تراتبي فوق رأسها يشير إلى العمر المفترض للمتباري.

أدخل بيرد قطعة نقود بين شفتي الفتاة وجرَّب أن يفرِّق ذراعيها، فلم ينجح. ضرب بقوة أكبر، مع شعور باغتصابها. أخيراً سُمعت طقطقة وظهرت أرقام في العينين الفارغتين: ٧٠، ٧٥. تفحّص بيرد الجدول. في عمره، الذي هو ٢٧ سنة، يتناسب الرقم ١١٠. وبنظرة جاحدة، اكتشف أن الرقم ٧٥ يتناسب مع عمر الأربعين. أربعون سنة! الصدمة شنَّجت معدته وتجشأ. في سن السابعة والعشرين وأربعة أشهر له قوة رجل في الأربعين - وأياً يكن فإن عضلات كتفية وخاصرته تؤلمه. اقترب من الآلة الأخرى مقرراً أن يعيد رفع شأنه، معتبراً بدهشة ما أنها مسألة شرف.

كحيوانات متوحشة غزْت أرضاً، تجمَّد الشبَّان في أمكنتهم ونظروا إلى بيرد بارتياب. تفحص بلا مبالاة واضحة الآلة التي يتحلقون حولها. إنها تذكّر بمشنقة في فيلم أميركي، سوى أنّه عوض المشنوق كانت توجد مثل خوذة لفارس من روسيا القديمة، تخفي قسماً من كيس رمل ملبَّس بجلد أسود. بعد وضع قطعة نقود في الثقب وسط الخوذة، يسحب اللاعب كيس الرمل من مخبئه، وتعود الإبرة إلى رقم الصفر، ولا يبقى عليه غير أن يلطم. وكإثبات قوة، تقدَّم واحد من الصبية، وضع قطعة نقود، سحب كيس الرمل، تراجع خطوة واتخذ وضع الملاكم. أحدثت لطمته صوتاً خانقاً وسجَّلت الإبرة الرقم الأقصى. قرفص الصبي متباهياً بظفره، في وضع «الكاراتيه» هذه المرة، وأرسل ضربة خفيفة من قدمه إلى كيس الرمل، فنزلت الإبرة إلى الرقم ٥٠٠ وعاد كيس الرمل ببطء إلى الخوذة مثل محارٍ متعب. وغرق الجميع في الضحك.

اجتاحت بيرد رغبة حمقاء. ولئلا يتلف خريطتيه نزع معطفه، وضعه على طاولة «بينغو»[1]، ووضع في الآلة قطعة نقود كان تركها ليتصل بالمستشفى. لم تكن تفارقه نظرات الشبّان. أنزل الكيس، تراجع قليلاً وشدَّ قبضتيه. بعدما طُرد من المعهد وقت كان يحضّر امتحانات الدخول إلى الجامعة، تعارك مرات عديدة مع سوقيين آخرين من مدينته. كانوا يخافونه، وكان محاطاً دائماً

(١) نوع من اللوتو الأميركي.

بفتيان معجبين. كان بيرد يثق بقبضتيه. ركّز وضعه وضرب كيس الرمل ضربة مباشرة بيمناه. هل تجاوز الرقم الأقصى، الـ ٢٥٠٠، وخرّب الآلة؟ لا: توقفت الإبرة على الـ ٣٠٠... انطوى بيرد على نفسه شاعراً بنوع من الذهول، ثم اشتعل وجهه بالاحمرار بينما بقيت قبضتاه مشدودتين. ظلّ الفتيان وراءه صامتين، مذهولين مثله بلا شك بصنيعه هذا الذي يدعو إلى السخرية. وضع بيرد قطعة نقدية أخرى. هذه المرة لا مجال للاهتمام بالشكليات: حمّل ضربته كل ثقل جسده. سجلت الإبرة رقم ٥٠٠.

ارتدى بيرد معطفه واستدار نحو الشبان الصامتين. حاول أن يرسل إلى منافسه ابتسامة متعاطفة ومقدّرة من بطل رياضي قديم، لكن الفتيان كانوا ينظرون إليه بسخرية كأنهم يراقبون كلباً. احمّر وجهه واتجه بسرعة نحو المخرج خافضاً رأسه، ترافقه الضحكات الساخرة.

اجتاز بيرد الساحة يغشوه خجل طفولي، ودخل في شارع صغير مظلم. لم تبق لديه الشجاعة للاختلاط بالناس. دلف إلى طريق مسدودة وتوقف فجأة عند منحدر سكة حديد. كانت السماء حينئذٍ بلون الحبر، فوق ضبابة حمراء تصنعها أضواء الساحة النيون. انكسرت نقطة مطر على خد بيرد، الذي أخفض رأسه ووقف ليبول خفية، غير واجد شيئاً آخر يفعله. وقبل أن ينتهي سمع وراء ظهره أصوات خطى. التفت ليرى نفسه محاطاً بصبيان القمصان المزركشة.

لم يكن يرى وجوههم، لكنه تذكّر هيئتهم الساخرة في «مرمى الزاوية». كان ضعفه قد أثار وحشيتهم الغريزية، موقظاً فيهم رغبة تعذيب زميل لهم في اللعب غير جدير بالدفاع عن نفسه. خاف بيرد وبحث عن مخرج. لكي يبلغ الساحة عليه أن يدفع الصبيان، وهو أمر ميؤوس منه لمن له قوة رجل في الأربعين. فكّر للحظة أن يتظاهر بالهرب نحو منحدر السكة، ثم يستدير إلى الشمال وينفذ بين الشلة والبيوت، لكن أعداءه حزروا قصده ـ كما كان يحزر هو في سن العشرين ـ وأفسدوا خطته. بالكاد تحرك ثلاث خطوات حتى اصطدم بشبح أسود، وأسقطته لكمة على المنحدر. بصق لعاباً ممزوجاً بدم

وهو يئن. بدرت من المراهقين الضحكة المبتهجة نفسها حين أوصل أحدهم إبرة الآلة إلى ذروتها، وأحكموا الدائرة حول بيرد. فكر بيرد في هذا الوقت أن خريطتيه لا بدَّ أُتلفتا وأن طفله لا شكَّ وُلد. أخذه غضب مفاجىء، ممزوج باليأس. حتى اللحظة لم يفكر إلا بالهرب، ولكن لا قرار له في ذلك. إذا لم يقاتل الآن، فلن يخسر فقط آخر خط له في الذهاب إلى أفريقيا إنما طفله أيضاً سيأتي إلى العالم تحت أسوأ طالع...

كان المطر يبلل شفته الممزوقة. حرّك رأسه، دمدم، وقام ببطء. تراجع الفتيان خطوة كأنما ليفسحوا له المكان، وبقي أمامه الأقوى بينهم في وضع قتالي. أخفض بيرد رأسه وانقضّ كثور هائج. لطم بطن المراهق الذي أرسل صيحة وانهار متقيئاً الصفراء. واجه بيرد الآخرين. استفاقت فيه شهوة قتال لم يختبرها من سنوات.

- هيا، لننسحبْ. فلنترك هذا الشخص، إنه عجوز جداً!

هدأ التوتر فجأة. ساعد المهاجمون رفيقهم على النهوض وابتعدوا نحو الساحة. هو، ظلّ تحت المطر. مسخرة كل هذا جعلته يضحك بصمت. كان هناك دم على معطفه لكن المطر غسله. إنه يتوجع من ذقنه، من ذراعيه، من ظهره، ولكن للمرة الأولى هذا النهار ينتابه إحساس بالسلام وتقريباً بالفرح. مرّ القطار على المنحدر فوق رأسه، مثل كركدن ضخم أسود يركض في سماء من الحبر.

في الساحة، وهو ينتظر التاكسي، تبين بيرد أن سناً من أسنانه مكسور. بصقه على الرصيف.

- ٢ -

تحت خريطة أفريقيا الغربية المبقعة بالدم والوحل، والتي علّقها بدبابيس على الحائط، نام بيرد متكوراً في الغرفة الزوجية. كان المهد الأبيض للطفل الموعود موضوعاً بين السريرين، ومغلّفاً بعد بالغطاء الفينيلي.

كان بيرد يحلم متذمراً في نومه من برودة الفجر. إنه على هضبة من هضاب الضفة الغربية للتشاد، شرقي نيجيريا. ماذا يفعل في هذا المكان؟ فجأة رآه هلوف[1] ضخم واندفع إليه. رائع! لقد جاء بيرد إلى أفريقيا بدافع المغامرة، كي يلتقي قبائل جديدة ومخاطر مميتة، كي يكتشف ما كان وراء أفق حياة يومية كثيرة الهدوء ومخيبة دوماً للآمال. ولكن لم يكن معه سلاح لقتل الهلوف... وصلتُ إلى أفريقيا فارغ اليدين ودون تحضير، فكّر بيرد واستولى عليه الخوف. تذكّر سكين فرضة التوقيف التي كان يخفيها دائماً تحت زنار بنطاله عندما كان زقاقياً في مدينة في بلده. كيف يقولون «هلوف» باليابانية؟ سمع المراهقين الذين هاجموه يهربون وكانوا يصرخون: «انتبهوا! إنه هلوف!». كان الحيوان الهائج على بعد أمتار منه ـ كيف يهرب؟ وفجأة، ناحية الشمال، اكتشف بيرد منطقة محاطة بخط أزرق مائل، هو بلا شك سلك فولاذي. راح يركض. فات الأوان! الهلوف تقريباً فوقه... جئتُ إلى

---

(١) ختزير ذو قرنين.

أفريقيا فارغ اليدين ودون تحضير؛ لن أتخلص منه. اليأس، الخوف، عيون الناس التي لا تحصى ناظرة إليه يركض نحوهم، طلباً للأمان وراء الخط الأزرق... كانت أنياب الهلوف تنغرز في عرقوبه...

استيقظ مذعوراً على رنين الهاتف. إنه الفجر ـ وكانت لا تزال تمطر. نهض بيرد وهرع إلى التلفون. صوت رجل لفظ اسمه ثم قال له بجفاف:

ـ تعال فوراً إلى العيادة من فضلك. الطفل غير طبيعي. سيشرح لك الطبيب.

شعر بيرد فجأة بالانزعاج. كان يريد أن يجد من جديد هضبته النيجيرية وحلمه مهما كان مفزعاً. تمالك نفسه وسأل بصوت أراده أن يكون لا مبالياً:

ـ هل الأم بخير؟

ـ نعم، زوجتك بخير، ولكن تعال بأسرع ما يمكن من فضلك.

عاد بيرد إلى غرفة النوم، أغمض عينيه، وحاول أن يلوذ بدفء الفراش كما لو أنه يستطيع طرد الحقيقة بنسيانها، لكن شيئاً لم يتغير. هزَّ رأسه باستسلام وبدأ في ارتداء ملابسه. عندما انحنى ليُدخل بنطاله، ذكرته ضلوعه الأليمة بعراك الليلة السابقة، وأحس بنفحة فخر عابرة. نظر إلى خريطة أفريقيا وهو يزرّر قميصه. كانت هضبة حلمه تدعى «ديفا» فوقها تماماً رسم خنزير مهاجم، والخط المائل اللازوردي يشير إلى حدود أرض محظورة. لم يكن إذن في مأمن حتى ولو نجح في اجتيازه...

نزل الدرج على رؤوس أصابعه. المرأة العجوز صاحبة المُلك تسكن في الطبقة الأرضية: إذا استفاقت سيكون مجبراً على الرد على حشريتها المتعاطفة. ولكن ماذا يقول لها؟ كل ما كان يعرفه أن الطفل غير طبيعي.

كانت الدراجة مستلقية على الحصى أمام السياج. رفعها ومسح بكمّ معطفه المقعد المبلل بالمطر، ثم امتطاها. بعد لحظات شعر بردفيه رطبين ومثلجين. وها هو المطر ينهمر من جديد. على المفترق أخذ اتجاه اليسار. رفع رأسه ورأى الشارع فارغاً. أوراق الشجر على الجهتين كانت تبدو مشبعة

بالماء . وفوق الشجر لا تزال السماء رمادية متسخة ، وبالكاد وردية في البعيد، من جهة الشمس التي على وشك الطلوع ـ سماء متكتمة ، مرهقة بغيوم ضخمة . ثلاث قنادس[1] حلّقت أمام بيرد وكادت تفقده التوازن . لاحظ أن أقلّ شيء كان يعكّره، وأن عينيه وأذنيه وحاسة شمه حساسة بشكل غير عادي . إنه نذير شؤم : حدث له هذا قبلاً ، عندما كان يشرب .

ضاعف الدوس ليسرع أكثر . فكّر للحظةٍ في هربه في الحلم ، لكن ذلك لم يبطئه ، ولم يكفّ عن الدوس إلا أمام العيادة حيث كبح الفرامل بعنف حتى أن الدواليب كشطت الأسفلت وكاد يسقط . كان مبللاً ويرتعش من البرد ، شاعراً أنه قاد ساعات بأكملها .

وقف أمام غرفة المعاينة ليلتقط أنفاسه ، ثم ألقى نظرة في الداخل واتجه إلى الوجوه الغامضة التي كانت تنتظره في الظلّ .

قال بصوت أبح : «أنا الوالد» ، متسائلاً عن سبب جلوس هؤلاء الناس في شبه عتمة .

رأى أخيراً حماته بوجه مستتر نصفه وراء كمّ الكيمونو كأنها تحاول ألاّ تتقيأ . جلس بيرد إلى جانبها مرتجفاً من رطوبة ثيابه . ورأى ، بعدما اعتادت عيناه العتمة ، ثلاثة أطباء جالسين وراء طاولة يراقبونه بصمت . على الحائط فوق رؤوسهم لوحة تشريحية ملوّنة ، مثل علَم في قاعة محكمة ، ترمز إلى شريعتهم .

ـ أنا الوالد .

كرّر بيرد كلامه بغضب ، كأنهم يتهمونه زوراً باقتراف شيء ما .

قال أحد الأطباء بلهجة استرضائية : عظيم ، عظيم .

كان هو مدير العيادة : لقد رآه بيرد يغسل يديه قبل معاينة زوجته . وعوض أن يشرح لبيرد ما كان ينتظره ، راح يحشو الغليون الذي أخرجه من جيب بذلته

---

(١) جمع قندس ، نوع من الطيور .

البيضاء . كان رجلاً قصيراً بديناً ، بمظهر هو في الوقت نفسه احتفالي ومحز ن . بذلته الوسخة مفتوحة على صدر مشعر كظهر جمل . فوق ذلك ، واضح أنه لا يملك وقتاً ليحلق ذقنه . لا شك أنه منذ ما بعد ظهر البارحة يصارع لإنقاذ الطفل . كان بيرد يعرف ذلك بالتأكيد، ولكن في الوقت نفسه كان يرى فيه مظهراً مشبوهاً دفعه إلى اتخاذ وضع المدافع ، كما لو أن شيئاً ما خطراً يستتر تحت هذا الجلد المشعر.

أخيراً أبعد المدير الغليون عن شفتيه الغليظتين وسأل فجأة بيرد وهو ينظر في عينيه .

ـ أتريد أن ترى الشيء أولاً؟

كان صوته شديد الصخب على الغرفة الصغيرة . سأل بيرد :

ـ هل الطفل ميت؟

نظر إليه المدير نظرة غريبة للحظة ، كما لو أن بيرد يتهمه بقتل المولود الجديد، لكنه محا هذا الانطباع بابتسامة مبهمة .

ـ لا أبداً . حركاته طبيعية حتى ان له صوتاً قوياً .

أرسلت حماة بيرد تنهيدة عميقة . إما أنها متعبة أو تريد تذكير بيرد في أي وضع شاق هو وزوجته .

ـ إذن؟ أتريد أن ترى الشيء ؟

وقف الطبيب الشاب الجالس على يمين المدير. كان شخصاً طويلاً نحيلاً له وجه غير متناسق في شكل غريب : في إحدى عينيه خوف وقلق ، وفي الأخرى نظرة شاردة ، بقي بيرد فترة ليعرف أنها عين زجاجية .

سأل بيرد بشيء من الضيق :

ـ هل يمكنكم أن تشرحوا لي أولاً؟

الكلمة التي استعملها المدير («الشيء») أثارت فيه اشمئزازاً لم يكن يفارقه .

ـ ربما يكون هذا أفضل، نعم. إذا رأيته ستصدمك المفاجأة كما حدث لي أنا.

صدرت بغتة عن المدير ضحكة صغيرة صبيانية، عرف بيرد أنها هي الشيء المشبوه الذي حدس به تحت الجلد المشعر، والتي اتخذت في البدء شكل ابتسامة غامضة. نظر بغضب إلى المدير قبل أن يدرك أن الارتباك هو الذي أضحكه. لقد اقتلع من بطن امرأته مسخاً بلا اسم ـ ربما برأس هرّ وبجسد منتفخ كالبالون... وفي أية حال كان الطبيب يخجل من أنه جاء به إلى العالم، ولهذا السبب كان يضحك. فبعيداً عن الاعتراف بجدارة اختصاصه كمولّد خبير وكمدير عيادة، كان صنيعه بالأحرى أشبه بصنيع طبيب مشعوذ في مسرحية هزلية، وكان خجولاً، نعم...

انتظر بيرد بلا حراك كي يتمالك المدير نفسه. مسخ؟ من أي نوع؟ هو قال «الشيء» وسمع بيرد «المسخ». وحين عرَّف بنفسه قال «أنا الوالد» ودهش الأطباء لأنهم كانوا ينتظرون سماع شيء آخر: «أنا والد المسخ».

وجد المدير كرامته متكدرة من جديد، لكن وجهه كان محمراً قليلاً. نظر بيرد إلى الخارج، مصارعاً ضدّ الغضب والخوف في داخله. وسأل:

ـ ما الغريب فيه؟

ـ تقصد في مظهره؟ يمكن التخيُّل أنه برأسين...

كان المدير سيضحك من جديد لكنه تمالك نفسه.

سأل بيرد بخجل:

ـ تقريباً كالتوائم السيامية؟

ـ لا، أبداً. يظهر فقط أن له رأسين. تريد أن تراه؟

ـ هل لذلك اسم في لغة الطب؟

ـ نعم: فتق دماغي. الدماغ ناتىء من فتحة في الجمجمة... أسست

هذه العيادة حين تزوجت، لكنها المرة الأولى التي أرى شيئاً كهذا. حالة شديدة الندرة. أستطيع أن أقول لك إني ذهلت.

«فتق دماغي». . . حاول بيرد أن يتخيل الأمر لكنه لم يستطع. سأل:

- هل هناك حظّ ما في أن ينمو طبيعياً؟

- ينمو «طبيعياً»؟

رفع المدير صوته كأنما بفعل الغضب.

- بوجود فتق دماغي؟ يمكن فتح الجمجمة وإدخال الدماغ، ولكن حتى في هذه الحال قد يستمرُّ في وضع نباتيّ خامل. . . ماذا تقصد تماماً بـ «طبيعياً»؟

التفت المدير إلى الحضور كأنما ليتخذهم شهوداً على نقص الحس المشترك لدى بيرد. هزَّ الطبيبان الآخران رأسيهما وسلّطا عينيهما على بيرد: كفاحصين ينظران باستنكار إلى مرشح غير مهيأ للرد على أسئلتهما.

سأل بيرد:

- هل سيموت فوراً؟

- لا، ليس فوراً. غداً ربما، أو ببطء أكثر. إنه مولود قوي جداً. . . هذا يعني، ماذا تنوي أن نفعل؟

صمت بيرد مشتّت الفكر. ما الذي يمكن فعله بحق الشيطان؟ يجرّونك إلى طريق مسدود ثم يسألونك ماذا تنوي أن تفعل. . . هذا الرجل جعله يتخيل لاعب شطرنج ماكراً. ما الذي يجب فعله؟ الإنهيار؟ النواح؟

قال المدير:

- إذا رغبت، يمكنني نقله إلى مستشفى الجامعة. . .

«إذا» رغبت.

كانت الجملة تشبه الفخ . قال بيرد متلعثماً غير قادر على إيجاد جواب ملائم :

ـ إذا لم يكن هناك حل آخر . . .

ـ ولا واحد، وسترتاح لأنك فعلت كل الممكن .

ـ ألا يمكننا ببساطة إبقاء الطفل هنا؟

التفت بيرد والأطباء الثلاثة إلى التي تكلمت . كانت حماة بيرد جالسة بلا حراك ولها مظهر مقماق مهجور . تفحَّصها المدير كأنها قالت شيئاً فادحاً وقال :

ـ هذا مستحيل . مستحيل تماماً . لا تنسي أن الأمر يتعلّق بفتق دماغي .

قال بيرد :

ـ في هذه الحال لننقله إلى المستشفى .

قفز المدير لعرض مواهبه الباهرة كمدير . أمر مرؤوسيه بالاتصال بمستشفى الجامعة والإتيان بسيارة الإسعاف . عندما خرجا، أعاد إشعال غليونه وقال بارتياح كأنه تخلص من مهمة مزعجة :

ـ واحد من أطبائنا سيرافق سيارة الإسعاف . ثقوا أن الانتقال لن يزعج الطفل .

ـ أشكرك جداً .

ـ من جهة أخرى، الأفضل أن تبقى الجدة هنا مع ابنتها، لماذا لا تعود أنت إلى بيتك وتبدل ملابسك المبللة؟ لن تكون سيارة الإسعاف جاهزة قبل نصف ساعة .

ـ هذا ما سأفعله .

اقترب المدير ووشوش في اذن بيرد بودّ كبير كأنه يخبره نكتة بذيئة :

ـ طبعاً، إذا رغبت، يمكنك منعهم من إجراء العملية . . .

فكّر بيرد: مسكين الطفل الصغير. . . كان عليه أن يكون هذا الخنزير المشعر أول شخص يقابله في هذا العالم. . .

وصل بيرد وحماته والمدير إلى مكتب الاستقبال صامتين، متحاشين أن ينظر واحدهم إلى الآخر.

استدار بيرد أمام المكتب ليودعهم. حاولت حماته أن تقول شيئاً، وقد أصبحت عيناها فجأة شبيهتين تماماً بعيني ابنتها كأنهما شقيقتان. انتظر بيرد، لكنها تابعت النظر إليه بصمت وقد فقدت عيناها كل تعبير. شعر بيرد بضيقها، بخجلها، كما لو أنها عارية في الشارع. ماذا كان يربكها هكذا؟ سأل بيرد المدير مشيحاً نظره:

ـ أهو صبي أم بنت؟

ابتسم المدير من جديد ابتسامة صغيرة غريبة مبغوتاً بالسؤال، وأجاب بلهجة طالب معاون مبتدىء:

ـ هيا. . . لا أتذكر تماماً، ولكن يبدو لي أني رأيت. . . نعم، هو هذا: رأيت قضيباً!

ابتعد بيرد. لم تكن تمطر والريح هدأت. شرنقة فجر غبشة كانت تُخرج صباحاً ساطعاً وللهواء رائحة بدء صيف منعشة جعلت جميع عضلات بيرد تسترخي. في العيادة كانت لا تزال تموج لدونة معتمة، ونور الصباح المنعكس الآن على البلاط وأوراق الشجر يؤذي قليلاً عيني بيرد المتعبتين. وعلى دراجته، كان يشعر أنه مخدَّر كحشرة تحت شوكة سرطان.

«تستطيع قيادة هذه الدراجة نحو بلاد بعيدة وتغرق في الويسكي أياماً وأياماً»، همس له صوت غريب. وانتظر بيرد أن يقول له المزيد لكنه لم يسمع شيئاً. فضغط ببلادةٍ على الدواسة. . .

فقط عندما انحنى ليتناول لباساً داخلياً نظيفاً لاحظ على شاشة التلفزيون أنه كان عارياً. نظر إلى شيئه واجتاحه شعور بالضيق. ارتدى لباسه

الخارجي، وبنطاله، وقميصاً ناشفة، ولكن ظلّ يبدو له أنه زردة في قيد مخجل مربوط بحماته ومدير المستشفى. كم هو شيء يدعو إلى الرثاء أن يكون الجسد البشري، الناقص والسريع العطب، دائماً في خطر! غادر بيرد الشقة مرتجفاً كمن يهرب من نفسه، امتطى دراجته وابتعد. تمنى أن يتمكن من تهريب جسده، شاعراً بأنه يستطيع أن يفعل ذلك على الدراجة أكثر من المشي، ولو قليلاً...

حين وصل إلى العيادة، رأى رجلاً بلباس أبيض ينزل بسرعة درجات المدخل حاملاً ما يشبه السلّة ويشق طريقاً بين المارة ليبلغ سيارة الإسعاف. حاول بيرد، الضعيف المتعب الذي كان بحاجة للهرب، أن يرى المشهد كأنه يحدث بعيداً جداً ولا أية علاقة له به، هو المتنزه الصباحي. غير أنه لم يستطع إلا أن يتقدّم، مثل خلد يحفر نفقه في الوحل.

نزل عن الدراجة وربط قفل الأمان بالدولاب الأمامي. ارتفع وراءه صوت مستنكر جعله يقفز:

ـ لا يمكنك ترك هذه الدراجة هنا!

استدار بيرد ورأى المدير، رفع الدراجة واختفى معها في الدغل، ثم عاد وحذاؤه مغطى بالوحل. بدا المدير آسفاً على فظاظته. وضع يداً على كتف بيرد ليقوده حتى سيارة الإسعاف، وقال له بلهجة مفخمة كأنه يتحدث عن رؤيا جوهرية:

ـ تعرف، إنه صبي... لقد تأكدت أني رأيت قضيباً.

كان الطبيب الأعور وطبيب البنج جالسين في سيارة الإسعاف، وبينهما السلّة وقارورة الأوكسيجين. ظهْرُ طبيب البنج يستر ما في السلّة، لكن صفير الأوكسيجين الخفيف كان يقول بوضوح أن «ذاك» لا يزال حياً. جلس بيرد في مواجهة الرجلين رغم أن نقّالة من القماش موضوعة على المقعد كانت تضايقه. أرسل نظرة في اتجاه العيادة وارتعد. من كل نوافذ الطبقة الأولى، وحتى من الشرفة، نساء حبالى ينظرن إليه. جميعهن يرتدين مآزر حمراء أو

زرقاء من النايلون وقد خرجن لتوهن من الأسرَّة، حتى يمكن القول أنه جيش من الملائكة يرقص في السماء. قرأ بيرد الحشرية في وجوههن، والانتظار، واهتماماً مسيئاً. أخفض نظره. بدأت صفَّارة الإنذار بالنعيب وانطلقت السيارة. وكان على بيرد أن يتشبث بالمقعد لئلا يقع.

يا لهذه الصفَّارة! حتى هذا الوقت كانت الصفارة بالنسبة إليه شيئاً متحركاً: يأتي أنينها من بعيد، يمر، ويتلاشى. الآن هذا النعيب كأنه جزء منه، مثل مرض أو وجع معذِّب لن ينتهي.

قال الطبيب صاحب العين الزجاجية: كل شيء على ما يرام.

كانت في هيئة سلطة بحيث جاء تأكيده بالنسبة إلى بيرد كنوع من التهديد.

تمتم بيرد: شكراً.

أضاف الطبيب:
- إنها حالة نادرة جداً كما تعلم. الأولى التي أراها.

وبرغم وجود النقالة جاء وقعد إلى جانب بيرد.

سأله بيرد:

- أنت اختصاصي دماغ؟

- لا، أنا مولِّد. لا يوجد اختصاصيو دماغ عندنا. لكن ظواهر المرض واضحة: فتق دماغي بلا أدنى شك. طبعاً سنتأكد منه زيادة إذا اقتطعنا عيِّنة من القسم الناتىء وفحصناها، غير أن ذلك دقيق وخطر. لهذا السبب فضَّلنا نقل الطفل إلى المستشفى... أنا مولِّد كما قلت لك، لكني لست مستاء من التعرف إلى حالة فتق دماغي، آمل أن أتمكن من حضور تشريح الجثة... ستوافق على التشريح أليس كذلك؟ لا شك أني أبدو لك وقحاً، ولكن خذها من ناحية أن التقدم في الطب هو عمل جماعي - أقصد أن تشريح طفلك ربما سيسمح لنا بانقاذ أطفال آخرين. ولنكن صريحين، أعتقد من الأفضل أن يموت، لك ولزوجتك ولكم كلكم. هناك أناس يتفاءلون كالبلهاء أمام حالة

كهذه، لكن بالنسبة إليَّ أرى أن موت الطفل السريع أفضل للجميع. ربما هذه مسألة جيل... أنا من مواليد ١٩٣٥. وأنت، كم عمرك؟

أجاب بيرد أنه غير قادر على تحديد تاريخ ولادته على الحساب الغربي:

- مثلك... إني أتساءل إذا كان يتوجع؟

- هذا يعود إلى ما تعنيه بالتوجع... هو غير قادر على الرؤية أو السمع أو الشعور، نعم. وأراهن أن الأعصاب التي تنقل الألم إلى الدماغ لا تعمل هي أيضاً. تذكّر ما قاله المدير: إنه نوع نباتيّ خامل. هل يمكن أن يتوجع النبات في اعتقادك؟

طرح بيرد السؤال خافتاً جداً على نفسه: هل يتوجع النبات في اعتقادي؟ هل تساءلت مرة إذا كانت ملفوفة تتألم حين تقضمها عنزة؟ هزَّ رأسه كما لو أن المسألة تعدَّت نطاق حكمه. وفي الوقت ذاته أراد أن يترك نفسه هكذا تحت سيطرة مجهول. هذا لم يكن حدث له مطلقاً بعد، على الأقل من غير أن يقاوم قليلاً...

قال طبيب البنج: الأوكسيجين لا ينتقل جيداً.

وقف الطبيب ليفحص أنبوب الكاوتشوك، ولأول مرة رأى بيرد ابنه.

كان طفلاً مريعاً، بوجه صغير متغضن وأحمر. عيناه مقفلتان كصدفتين صغيرتين، وأنابيب من الكاوتشوك مغروزة في منخريه، وفمه مفتوح كأنه يرسل صرخة مكتوبة. مال بيرد إلى الأمام ليرى الضمادة حول رأسه. كانت جمجمته تختفي تحت الرباط داخل قطن مدمًّى، ولكن لا شيء يشير إلى وجود زائدة غير طبيعية.

أشاح بيرد عينيه وضغط جبينه على الزجاج. كان الناس في الشارع مأخوذين بصفارة الإنذار، ينظرون إلى سيارة الإسعاف بالحشرية المسيئة نفسها من النساء الحوامل في العيادة. كانوا يعطون الانطباع بأنهم مجمدون عن الحركة كأشخاص فيلم معطّل.

فكَّر بيرد: رأس ابني مضمَّد مثل أبـولينير حين جُرح في أرض المعركة. ابني جُرح مثل أبـولينير في أرض معركة مهجورة لم أرها قط ـ وهو يصرخ الآ ن بصمت.

أجهش بيرد بالبكاء. الرأس مضمَّد، مثـل أبـولينير... هذه الصـورة بسَّطت أحاسيسه، أعطتها معنى. شعر أنه أصبح عاطفياً ببلاهة، وفي الوقت نفسه مبرًا، واكتشف أيضاً عذوبةً ما في دموعه. إبنـي جُرح كأبـولينير، في أرض معركة مجهولة، وعاد بضمـادة حول رأسـه. سيكون علـيَّ أن أدفنـه كجندي مات في الحرب...

وتابع بيرد البكاء.

- ٣ -

كان بيرد جالساً على درجة من درجات السلّم أمام غرفة الطوارىء، ويداه قابضتان على ساقيه ليقاوم التعب الذي اجتاحه حين كفّ عن البكاء. خرج الطبيب الأعور من الغرفة متضايقاً. وقف بيرد. قال له الطبيب:

ـ آه، الإدارة! لا أحد يدعك تطرح كلمة هنا، حتى ولا الممرضات...

تغيَّر وضعه. لم تبق لديه الثقة نفسها كما في سيارة الإسعاف.

ـ أعطاني المدير رسالة لبروفيسور يعمل هنا وتجمعهما قربى بعيدة، ولم أتوصل حتى إلى معرفة مكانه!

فهم بيرد قلقه المفاجىء: هنا كل الناس يعامَلون كمولود جديد، والطبيب الشاب صاحب العين الزجاجية بدأ يشكك في أهميته الخاصة.

سأل بيرد بانفعال تعجَّب له هو نفسه: والطفل؟

ـ الطفل؟ آه نعم... سنفهم الوضع عندما ينتهي الجراح من معاينته... هذا إذا لم يمت... إذا مات سينيرنا التشريح. أشك في أنه سيحيا أكثر من ٢٤ ساعة. يمكنك أن تعود غداً بعد الظهر. لكني أنبهك: هذا المستشفى يحكمه بيروقراطيون. حتى الممرضات!

وابتعد كأنه قرر ألا يسمع أي سؤال آخر. تبعه بيرد وهو يشد السلة

الفارغة إلى خاصرته. انضم إليهما طبيب البنج وسائق سيارة الإسعاف في رواق المدخل. لم يظهر عليهما أنهما لاحظا فوراً أن الطبيب فقد مرحه. ثم إنهما نفسهما لم يكن لديهما الإعتزاز الذي أظهراه حين كانت سيارة الإسعاف تعبر المدينة كمصفَّحة منقضة في أرض معركة، مطلقين صفارتها جهاراً ومشعلين أضواءها الحمر. لاحظ بيرد أن الرجلين المرتديين البياض يتشابهان من الخلف كتوأمين. حتى صلعهما الحديث كان مطابقاً.

لم يعرهما الطبيب الأعور الاهتمام وليظهر لهما بيرد ودّه، سأل طبيب البنج:

ـ هل يمكنكم أن تشغلوا أيضاً صفارة الإنذار والأضواء الحمراء في طريق العودة؟

تبادل التوأمان نظرة، ثم ضحكة صغيرة ماكرة. شعر بيرد بالغيظ من بلاهة سؤاله ومن رد فعلهما معاً، لكن الرجلين بديا متأسفين من ضحكهما على هذا الوالد الشاب المسكين، مما جعل غضب بيرد يهدأ حينئذٍ ويتحول إلى ندم.

نظر إلى السلة التي يحملها تحت ذراعه، فارغة كثقب حفروه بلا لزوم، إلا لغطاء مطويّ، ولفة شاش، وقليل من القطن. لم يكن الدم الذي يلوّث الشاش والقطن يستحضر إلا بغموض شديد الطفل ذا الرأس المضمَّد، ولم يستطع بيرد حتى أن يتذكر وجهه. عانى لذلك من مزيج من العزاء والشعور بالخطأ والخوف: فَكَّر: سريعاً سأنسى كل شيء عن هذا الطفل، عن هذه الحياة المنبثقة من عتمة لا نهائية، التي أمضت تسعة أشهر في حالة جنينية لئلا تعرف غير بضع ساعات من وجود مضنٍ وتعود إلى العدم، قد أنساه أيضاً في الحال ـ ولكن عندما تأتي ساعة موتي أنا ربما سأتذكر، وحينذاك، إذا جعلت هذه الذكرى احتضاري أكثر ضنًى وخوفي من الموت أكثر حدّة، سأؤدي جزءاً صغيراً من واجباتي كأب...

خرج الرجال الأربعة من المستشفى وراح التوأمان يركضان نحو موقف السيارات. اختصاصهم يفرض عليهم أن يسرعوا دائماً. يجب أن يكون

الركض بالنسبة إليهم سلوكاً عادياً. الطبيب الأعور توقف أمام غرفة للهاتف حيث خابر مديره ليعرض له باختصار مهمته الموجزة. ثم التفت نحو بيرد:

- والدة زوجتك على الخط. أتريد التحدث إليها؟

رغب بيرد أن يصرخ «لا، بحق الآلهة». بعد مخابراته العديدة أمس، لم يكفّ صوت حماته الشبيه بطنين ذبابة مسجونة في السماعة عن إرهاقه. غير أنه وضع السلة على الأرض وتناول السماعة عابساً، وقال:

- لم ينته الاختصاصي من معاينته بعد. يجب أن أعود غداً بعد الظهر.

- ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ أقصد: ما الذي يؤمل بعد؟

كانت لهجتها تقريباً اتهامية، كما لو أن بيرد مسؤول مباشرة عن كل شيء.

- الحقيقة أن الطفل لا يزال حياً... سأعود وأشرح لك.

كان سيقفل، لكن حماته أضافت!

- آلو... لا، لا ترجع إلى هنا. تعتقد الصغيرة أنك أخذت الطفل إلى عيادة للأمراض القلبية. إن عدت الآن ستتشك في الأمر. سيبدو طبيعياً أكثر لو تعود غداً أو بعد غد، حين تكون قد هدأت، وتقول لها ان الطفل مات من خلل في القلب. وفي الانتظار ستتصل بي.

- عظيم. سأذهب إلى المعهد وأشرح ما جرى لـ...

سمع صوت انقطاع الخط. أقفلت السماعة في الطرف الآخر. فعل الشيء نفسه والتقط السلة من جديد.

كان الطبيب الأعور في سيارة الإسعاف الآن. ودون أن يصعد بيرد، وضع السلة على مقعد السيارة وقال: شكراً على كل شيء.

سأل الطبيب: هل تفضل العودة إلى بيتك؟

- نعم.

في الحقيقة، كان ينوي الذهاب إلى والد زوجته ليخبره ما جرى، ثم بعد ذلك العودة إلى بيته. زيارة إلى عمه الأستاذ كانت احتمالاً معزياً تقريباً قياساً إلى الذهاب عند زوجته وحماته.

أغلق الطبيب الباب وابتعدت سيارة الإسعاف بصمت، وبسرعة عادية، مثل مارد قديم محروم من قوّته وصوته.

عبر بيرد ساحة المستشفى الطويلة والعريضة كملعب كرة قدم. استدار في منتصف الطريق ونظر إلى البناء حيث ترك لتوه ابنه الأول، طفلاً على وشك الموت. كان المستشفى يشبه قلعة. كتلتها الهائلة اللامعة في شمس الصباح تجعل المولود الجديد، الذي يصرخ بضعف في إحدى زواياها المظلمة، أبخس من حبة رمل. فكّر بيرد: إذا عدت غداً قد أضيع فعلاً في هذه المتاهة ولا أجد أبداً طفلي الذي سيموت أو الذي قد مات... هذا التفكير أنقص وزن نكبته. وأسرع في بلوغ بوابة المدخل والشارع.

كانت تلك أجمل ساعات أيام الصيف. نسيم ذكّره بنزهاته حين كان طالباً داعب بلذة وجنتيه المحمرتين من قلة النوم. رشفت بشرته عذوبة اللحظة بنهم، وإحساس بالتحرر فتح نهاراً في سريرته.

دخل أول صالون حلاقة صادفه ليحلق ذقنه. دعاه الحلاّق للجلوس كأي زبون عادي دون أن يحزر شيئاً من همومه. وضع بيرد نفسه مكان الشخص الذي كان يراه الحلاق فيه، ونجح في التخلص من حزنه وقلقه. أغمض عينيه وأوشك أن يبتسم، لكنه عدل. لم يكن عليه أيضاً أن يبالغ... ولكي يعاقب ذاته، أرغم نفسه على التفكير في الطفل. يجب ألا يكون متوجعاً. هكذا قال له الطبيب الأعور. أفضل ـ ولكن ماذا كان يعني موت طفل في هذا الوضع؟ أو حتى حياته؟ برعمُ وجودٍ يخرج من عدم، وبالتأكيد جنين بلا وعي، يقتصر وجوده على كتلة متدحرجة في عالم حار، مظلم، وتقريباً مائي. ثم ينبثق تحت الخطر في عالم بارد، قاس، جاف، وصاعق الضوء، لا يستطيع أن يملأه كما كان يملأ بطن امه. عليه أن يعيش فيه مع جمهرة من الغرباء. ولكن لطفل شبيه بالنبات، هذه الإقامة في العالم الخارجي لا تعني غير بضع ساعات من

العذاب السرّيَ الغامض، ثم لحظة اختناق، والعدم من جديد. وإذا كانت هناك حقاً دينونة أخيرة؟ باسم ماذا سيحاكم، ويتّهم، ويُحكم عليه أو يُغفر له، طفل لن يعيش غير بضع ساعات؟ والقاضي، هل سيأخذ في الاعتبار الملفَّ الناقص؟ اعترى بيرد فجأة خوف جديد، لو دعيت كشاهد، لن يكون حتى بمقدوري أن أعرف ابني...

- «لا تتحرك هكذا»، قال له الحلاق. «كدت أن أجرحك جرحاً بالغاً...».

لمس بيرد شفته ورأى قليلاً من الدم على إصبعه. أحس بالغثيان يرتفع إلى حلقه. كان دمه من فئة «أ»، كدم امرأته أيضاً. إذن الدم القليل الذي يجري في جسد الطفل المائت هو على الأرجح من الفئة نفسها... أغمض بيرد عينيه وتابع الحلاق عمله باحتراس حول الجرح، ثم حلق الخدين والذقن بسرعة كبيرة كأنه يعوّض عن الوقت الضائع.

- أعمل لك شمبوان؟

- لا. شكراً.

ألح الحلاق: شعرك دهني ومغبّر.

- أعرف، وقعت ليلة البارحة.

نظر بيرد إلى المرآة وهو يغادر المقعد. كان شعره متسخاً فعلاً. لكن وجهه كان أنضر، ومورّداً وساطعاً أكثر من بطن سمكة ترويت. لو كانت عيناه أكثر تألقاً وجفناه أقل تقطيباً وشفتاه الرقيقتان أقل انقباضاً، لبدا بوضوح أكثر شباباً ونشاطاً من صورته التي عكستها ليلة أمس واجهة المخزن.

في أية حال، كان محقاً أن يتوقف لدى الحلاق. ولعدم توافر الأفضل، أعادت له هذه المحطة بعض توازنه المعرَّض للخطر منذ الفجر. إلى أن يصل إلى المعهد، لا شك سيبهت الألق الذي منحته الموسى لوجنتيه، لكنه على الأقل لن يمثل أمام والد زوجته بهيئة متسكع كئيب ومضحك. وتذكر وهو يبحث بعينيه عن موقف أوتوبيس، أن لديه من المال ما يكفي ليستقل التاكسي.

حين نزل منه وجد نفسه بين مجموعة من الطلبة تعبر الحاجز المشبَّك ذاهبة إلى الغداء. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف. استوقف طالباً في الحرم الجامعي ليسأله عن الطريق. وفوجيء به يبتسم له بود قائلاً بتوق:

ـ مضى زمن لم نتقابل يا أستاذ!... كنت من تلامذة صفك في المدرسة. ولا مدرسة رسمية قبلت بي، فطلبت من والدي أن يقدم هبة لهذا المعهد ودخلت إليه من الباب الضيق.

أخيراً تذكر بيرد الصبي الذي كان يشبه بعينيه الجاحظتين وأنفه البصلّي الفلاحين الألمان في مجموعة «حكايات غريم» المصوَّرة.

قال بيرد: لديَّ انطباع بأن دروسي لم تفدكم كثيراً.

ـ لا تقل هذا يا أستاذ. لا يضيع الوقت أبداً في الدراسة حتى لو لم يُحفظ شيء مما نتعلّمه.

خطر لبيرد أن يسخر منه، ولكن كان واضحاً أن الولد ذو نية طيبة. من بين مئة من تلاميذه تذكر بيرد أنه كان كسولاً فعلاً، ولهذا السبب كان سعيداً في أن يخبر بيرد أنه دخل «من الباب الضيق» إلى هذا المعهد من الدرجة الثانية. وبينما كان جميع الآخرين يحاولون تجنب إعادة شرح الدروس، كان هو يتمسك في إظهار امتنانه لدروس لم تكن تنفعه في شيء.

قال بيرد:

ـ لو نظرنا إلى مستوى التعليم عندنا لاستسغنا كلامك هذا.

ـ أوه، كان ذلك مهماً... هل ستصبح استاذاً هنا؟

هزَّ بيرد رأسه نافياً، وأحس الطالب بعدم وجوب الإلحاح.

قال:

ـ دعني أدلك. من هنا... لكني لم أكن أمزح يا أستاذ: لم أضيع وقتي في المدرسة. كل ما تعلمته لا يزال في رأسي. وهذا سيخدمني في يوم ما. يكفي انتظار الوقت المناسب. أليس لذلك تنفع الدروس في النهاية؟

بمرافقة تلميذه القديم المتفائل وصاحب الحِكَم، أخذ بيرد ممشى محاطاً بالشجر المزهرِ ووصل إلى أمام بناء من القرميد الأحمر الأمغر. قال الفتى:

- مركز القسم الإنكليزي في الطبقة الثانية.

وأضاف بفخر:

- كنت سعيداً جداً لدخولي إلى هنا حتى أني استكشفت كل شيء. أعرف الأمكنة مثل راحة يدي.

ثم بدرت منه ابتسامة ظهر فيها أنه يسخر من نفسه:

- أبدو لك أبله، أليس كذلك؟

- لا، أبداً.

- أنت لطيف... حسناً، إلى اللقاء قريباً يا أستاذ. وانتبه إلى نفسك: إنك لا تبدو على ما يرام.

فكر بيرد وهو يصعد الدرج: «عندما يبلغ هذا الولد سن الرشد سيتدبر أمره في الحياة ألف مرَّة أفضل مني. هو، على الأقل، لن يكون له أولاد يموتون بفتق دماغي». سوف لن يتوهم أن في صفه أخلاقياً مدهشاً كهذا.

نظر بيرد من باب القسم الإنكليزي نصف المفتوح، ورأى والد زوجته جالساً في مقعد هزاز على الشرفة الصغيرة يتأمل السماء. كان المكتب شبيهاً بقاعة محاضرات، أرحب وأشرح من مكاتب الجامعة التي قدم فيها بيرد امتحاناته. كان عمه يقول غالباً بلهجة ساخرة كأنه يضحك من نفسه، أن المركز الذي يشغله في هذا المعهد الخاص والمميزات المعطاة له - خصوصاً المقعد الهزاز - كانت تمنعه من التحسر على جامعة الدولة. وتأكد بيرد أنها لم تكن مجرد مزحة.

ثلاثة معاونين شباب كانوا يتناولون الشاي إلى طاولة كبيرة قرب الباب يعرفهم بيرد ثلاثتهم بالنظر: أشخاص لامعون كانوا يسبقونه بصف في المعهد. لولا طرده وقصة الويسكي لكان حاول بالتأكيد أن يكون مثلهم.

دقّ بيرد على الباب نصف المفتوح، دخل القاعة، حيا الشباب الثلاثة واتجه إلى الشرفة. التفت إليه عمه وهو يتأرجح في مقعده الهزاز. لاحقه الثلاثة الآخرون بنظراتهم وابتساماتهم المتشابهة وغير المكترثة. لا شك أنهم ينظرون إلى بيرد كظاهرة لا تنتمي إلى عالمهم.

قال بيرد محافظاً على عادته في مناداة عمه حتى بعد زواجه: صباح الخير، بروفسور.

ـ هل وُلد الطفل؟

أجاب بيرد بصوت خفيف: نعم، وُلد...

وجهد في أن يتابع قائلاً دفعة واحدة:

ـ معه فتق دماغي والطبيب قال أنه سيموت غداً أو بعد غد، لكن والدته جيدة.

تحول وجه البروفسور الأسديّ من السمرة إلى اللون القرمزي وشعر بيرد بأنه احمرَّ هو نفسه. وأدرك إلى أي حد كان وحيداً ومهجوراً منذ الصباح.

ـ فتق دماغي؟ هل رأيته؟

ـ نعم، كان رأسه ملفوفاً بضمادات مثل أبولينير.

ـ ضمادات... مثل أبولينير...

بدا البروفسور أنه يجرب هذه الكلمات كأنما ليجد فيها مادة للمزاح وعندما تكلم توجه إلى المعاونين الثلاثة أكثر مما توجه إلى بيرد:

ـ يصعب التأكيد في عصرنا إذا كان الأفضل أن نحيا أو ألا نولد.

ضحك الشبان الثلاثة باحتشام والتفت بيرد إليهم. واجهوا نظرته، وكانت تعابيرهم تعني بوضوح أنهم لم يكونوا أبداً مفاجئين بأن يلاقي شخص غريب كبير حادثة مزعجة كهذه. وهو، مجروحاً، اخفض عينيه نحو حذائه الموحل.

قال لعمه : سأبلغك عندما ينتهي كل شيء .

ظل البروفسور صامتاً . تولد انطباع لدى بيرد أن مقعده الهزاز أصبح أقل راحة . صمت هو أيضاً . بدا له أنه قال كل ما لديه . هل سيتخلص من الورطة هكذا أيضاً عندما سيقول كل شيء لزوجته؟ بالتأكيد لا . ستكون هناك دموع ، اسئلة جرّارة ، إحساس بلا جدوى الكلمات ، حلق متوجع ، نوبة عصبية . . .

قال أخيراً : سأعود إلى المستشفى . هناك أيضاً أوراق يجب توقيعها .

لم تظهر على البروفسور نية مغادرة مقعده . همَّ بيرد أن يمشي ، فرحاً لعدم الطلب إليه البقاء أكثر ، عندما أضاف عمه :

ـ هناك قنينة ويسكي في مكتبي ، خذها .

ظل بيرد جامداً . أحس بحشرية المعاونين الثلاثة . لا شك أنهم ، كعمه ، يعرفون أزمته الكحولية وينتظرون ردَّ فعله . تذكر بيرد مقطعاً من كتاب إنكليزي صغير كان يقوله لطلابه : «أتسخرون مني؟ اتتحدونني؟» . مع ذلك انحنى على مكتب البروفسور ، فتحه ، وأخذ بيديه الاثنتين قنينة الـ «جوني ووكر» . أحس أنه أصبح قرمزياً ، ومع ذلك شعر بفرح خبيث . كان ذلك كمن يطلب من رجل أن يدوس الصليب ليبرهن أنه ليس مسيحياً . . . آه ، حسناً ، لن يروه متردداً! وقال : أشكرك .

استرخى المعاونون الثلاثة ، وعاد البروفسور إلى التأرجح على مقعده مستقيم الرأس ، ووجهه دائماً بلا انفعال ودائماً قرمزي . حيا بيرد الثلاثة الآخرين بسرعة وخرج .

شد على قنينة الويسكي في يده باحتراس كما لو أنها قنبلة يدوية . ما تبقى من النهار يخصه والـ «جوني ووكر» أوقظفيه وعداً بنشوة ومجازفة . فكر : غداً أو بعد غد ، وربما بعد اسبوع من التأجيل ، عندما ستعرف امرأته كل شيء ، سنجد انفسنا من جديد منغلقين في سجن فظ من العصاب . وفي الانتظار ، لي الحق في هذه القنينة وفي قليل من الحرية . . .

فكر أولاً أن يعود إلى بيته ويشرب بهدوء، لكنها لم تكن فكرة جيدة . في بيته قد يجد نفسه محاصراً بصاحبة الملك وبأصدقائه، متضايقاً من المخابرات الهاتفية، ومن أسئلة عن الطفل . إضافة إلى أن المهد الأبيض يعذّبه . لماذا لا يأخذ بالأحرى غرفة في فندق رخيص؟ لكنه تصوَّر نفسه سكراناً في غرفة مشؤومة وخاف . تأمل برغبةٍ الإسكتلندي المبتهج باللباس الأحمر الذي يركض على رقعة الـ «جوني ووكر» . إلى أين يذهب هكذا؟ وفجأة تذكر بيرد صديقة قديمة . في الصيف كما في الشتاء، كانت تمضي أيامها مغلقة على نفسها في غرفة النوم، محركة أفكاراً ميتافيزيقية عظيمة في غيمة من دخان السجائر، ولا تخرج إلا بعد هبوط الليل .

توقف بيرد على حافة الرصيف أمام مدخل المعهد مترصداً سيارة تاكسي . في الجهة الأخرى من الشارع، وراء زجاج كافيتيريا، رأى تلميذه القديم جالساً مع تلامذة آخرين . رآه الشاب أيضاً وراح يضع إشارات ودية ليلفت انتباهه . ماذا كان يقول لأصدقائه عن بيرد؟ هل يقول لهم إنه كان ناظر دروس إنكليزية، طُرد من المعهد لإدمانه الكحول، وأنه سجين هوى غامض أو ربما خوف مرضي؟

ظل الطالب يبتسم له حتى صعد بيرد في التاكسي . عندما ابتعد، شعر بيرد بأنه نال محبة صبي لم يكن أبداً، حين كان تلميذاً له، قادراً على معرفة الفرق بين اسم الفاعل والمضاف، ودماغهُ لم يكن بلا شك أكبر من دماغ هر.

كانت صديقة بيرد تعيش على مرتفع من مرتفعات المدينة العديدة، في حي محاط بالهياكل والقبور. تعيش وحدها في بيت صغير في عمق شارع صغير. تعرَّف إليها بيرد أثناء امتحان مختلط عندما كان في صف البكالوريا . حين كانت تعرّف الآخرين بنفسها، كانت تتحداهم أن يحزروا أصل اسمها الغريب :

إيميكو ـ «الطفل الذي لمح النار» . حزر بيرد الجواب الصحيح : أنه اسم مأخوذ من أخبار امبراطورية «هيغو» القديمة : «أمر الأمبراطور جذّافيه : هناك، في البعيد، تشتعل نار؛ سدّدوا مباشرة عليها . . . » . بعد ذلك أصبح

بيرد وايميكو، فتاة جزيرة كيوشو، أصدقاء.

كان في جامعة بيرد قليل جداً من الفتيات، فقط قبضة طالبات في قسم تاريخ الفنون جئن من المقاطعات إلى طوكيو، وكان يبدو لبيرد أنهن يتحولن جميعهن بسرعة إلى أمساخ يتعذّر وضعها، كأنّ خلايا تنمو في أجسادهن بشكل غير طبيعي لتعطيهن مظهراً مقطباً وأبله. كانت دروسهن تخولهن عموماً، أن يكنّ غير جديرات بحياة طبيعية. إذا تزوجن فلكي يطلقن. إذا وجدن وظيفة يُطردن. واللواتي لا يفعلن شيئاً، اللهم سوى السفر، كن يمتن في حوادث حمقاء وشنيعة بالسيارات. عندما نالت إيميكو شهادة تخرجها تزوجت من طالب آخر. لم تطلّق. لكن زوجها انتحر بعد سنة من زواجهما. أعطاها عمها البيت حيث كان الزوجان الشابان يعيشان وظل يرعاها على أمل أن تتزوج ثانية. لكن إيميكو كرست النهار للتأمل، والليل للنزهات في سيارة «سبور».

سمع بيرد من أحدهم أنها تعيش حياة مغامرات جنسية، ولرغباتها الشاذة علاقة بانتحار زوجها. لم ينم معها بيرد سوى مرة واحدة، ولكن في تلك الليلة كان كلاهما ثملاً تماماً حتى انه ليس متأكداً إذا ذهبا حتى النهاية. حدث ذلك قبل زواج إيميكو بوقت طويل، ومع أنها كانت تظهر رغبة قوية وتبحث بدأب عن متعتها الخاصة، إلا أنها لم تكن حينئذٍ سوى طالبة غير مجرَّبة.

نزل بيرد من التاكسي في مدخل الشارع حيث تسكن إيميكو. حسب بسرعة المال الذي تبقى له. غداً، بعد الصف، يجب أن يطلب سلفة من معاشه.

دسَّ قنينة الـ «جوني ووكر» تحت معطفه. لا بدَّ أن جيران إيميكو يعرفون حياتها الماجنة ويترصدون زوارها خفية...

رن بيرد الجرس. لا جواب. طرق على الباب ولفظ بصوت خفيف إسم إيميكو ـ مجرد شكليات. دار حول البيت الصغير ورأى سيارة «إم. جي» يعلوها الغبار، متوقفة تحت نافذة غرفة النوم. بدت السيارة الأرجوانية متروكة

هنا منذ وقت طويل. نادى بيرد إيميكو من جديد، وانفتحت هذه المرة ستارة برشاقة. ابتسم بيرد: كان يعرف أنه المكان المثالي للبدء بقنينة «جوني ووكر» في منتصف النهار.

وعاد إلى المدخل بروح خفّ وزنها.

- ٤ -

قال بيرد حين فتحت له إيميكو الباب : آمل أنك لم تكوني نائمة .

- نائمة؟ في هذه الساعة؟

رفعت يداً لتحجب عنها الشمس ، ولكن بلا جدوى : وقعت شمس الظهيرة بعنف على عنقها وكتفيها العاريتين ، كاشفة جزئياً عن قميص حمّام من قماش إسفنجي بلون البنفسج . كان جدُّ إيميكو صياد سمك من كيوشو تزوّج صبيّة روسية من فلاديفوستوك ، ما يفسّر البياض الواضح لبشرة المرأة الشابة . كان في حركاتها أيضاً شيء ما من حركات امرأة أجنبية غير مرتاحة في بلدها الجديد .

تراجعت إلى عتمة المدخل منبهرة بالنور بسرعة عصفور مباغَت . لم يكن لها جمال الصبيَّة القابل للعطب ولا الكمال المتفتح لامرأة ناضجة . ويمكن التنبوء بأنها ستبقى على الأرجح طويلاً في هذا الطور المتحيّر .

دخل بيرد بعجل وأغلق الباب وراءه . عتمة البهو جعلت عينيه ترفّان وهو ينزع حذاءه .

قال : لا أحب أن أزعج الناس في نومهم .

- أنت خجل جداً اليوم . . . في أية حال لم أكن نائمة . إذا نمت في النهار لا أتمكن من النوم في الليل . كنت أفكر في تعددية الكون .

فكّر بيرد: تعددية الكون؟ عظيم، هذا موضوع جيد للمناقشة مع شرب الويسكي... تبع إيميكو إلى غرفة الجلوس المظلمة، وبحث بعينيه عن المقعد القديم من خشب أسل الهند حيث كان يجلس دائماً، وقعد باحتراس بعدما أزاح كدسة من المجلات. كان يعرف أن إيميكو لن تشعل الضوء أو على الأقل لن تفتح الستائر قبل أن تأخذ حمّاماً وترتدي ملابسها وتتبرّج. كان على زوّارها الانتظار بصبر في الظلام. وفي زيارته الأخيرة لها. قبل عام تقريباً، داس بيرد على قدح وشجّ إبهام قدمه - إنها ذكرى مزعجة.

أين يضع قنينة الويسكي؟ الطاولة، أرض الغرفة، رفُّ الكتب تحت النافذة، الإلكتروفون، جهاز التلفزيون، تختفي كلها تحت سقط من الكتب والمجلات والعلب والقناني الفارغة والأصداف والسكاكين والمقصات والأزهار الذابلة والرسائل المفتوحة أو المقفلة. تردد بيرد أولاً، ثم وضع القنينة بين قدميه. قالت له إيميكو التي لاحظته، هازئة:

- لم أتعلّم الترتيب بعد كما ترى. لا يزال كل شيء كما كان منذ زيارتك الأخيرة.

- أصدّق هذا. حتى اني جرحت قدمي أيضاً.

- صحيح... أذكر كان هناك دم في كل مكان. مرَّ قرن على ذلك يا بيرد ولكن لا شيء تغيَّر هنا. وأنت؟

- حصل لي نوع من الـ... حادث.

- حادث؟

لم يكن بيرد ينوي أن يخلق في الحال جواً من همومه. وليبسّط الأمر قال:

- وُلد لنا طفل لكنه مات فوراً.

- لا؟ صحيح؟ لديَّ صديقتان حصل معهما الشيء نفسه. يعني ثلاثة حوادث متشابهة. ألا تظن أن للاسقاطات الإشعاعية علاقة ما؟

حاول بيرد أن يقارن ابنه بهؤلاء الذين رأى صوراً لهم مشوّهين بتأثير النشاط الإشعاعي، ولكن كان يكفي أن يفكر بتشوّه طفله الذي يبدو برأسين حتى يقبض على حلقه شعور حارق بالخجل. كيف يمكنه التحدّث مع الآخرين عن شيء شخصي كهذا؟ إنه همٌّ لن يستطيع أبداً أن يتقاسمه مع شخص آخر. قال:

- الظاهر في حالة ابني أن الأمر عائد إلى حادث بسيط.

قالت إيميكو وهي تنظر بحنو إليه: كم محزنة قصتك يا بيرد.

اكتفى بيرد بأن تناول قنينة الويسكي وقال:

- كنت أرغب في كأس. فكّرتُ أنك ستقبلين بمشاركتي مع أنه ليس الوقت المناسب. هل تودين؟

كان لديه انطباع بأنه يتصرف مثل «جيغولو» مبتذل. ولكن بهذه الطريقة كان الرجال الذين تعرفهم إيميكو يتصرفون معها عادة. ذاك الذي تزوجته تعامل معها (أكثر من بيرد وأصدقائها الآخرين) معاملة الشقيق الصغير - ثم ذات صباح، ودون أية كلمة، شنق نفسه.

قالت:

- أرى أنك لم تطلع من الصدمة بعد... طيّب، دعنا لا نتحدث عنها.

- هذا أفضل بلا شك. ثم، ليس هناك تقريباً ما نقوله.

- سآخذ حمّاماً. ابدأ بدوني. توجد أقداح وماء بارد في المطبخ.

اختفت إيميكو في غرفة النوم ونهض بيرد. كان المطبخ والحمّام ملاصقين، في نهاية الممشى الذي يفصل البيت الصغير إلى قسمين. كاد بيرد أن يسقط على هرّ قابع على الأرض، وتحاشى أن يدوس قميص الحمّام والملابس الداخلية التي نزعتها إيميكو لتوّها، وبلغ المطبخ. عند خروجه حاملاً إبريق ماء بيده وفي جيوب معطفه أربعة أقداح غسلها بنفسه، رمى نظرة خاطفة من الباب الذي تركته إيميكو مفتوحاً، ورآها تحت «الدوش» في

الحمّام الأكثر عتمة من الممشى. يد مرتفعة كأنها تعدّل حرارة الماء والأخرى على بطنها، تنظر إلى فخذيها من فوق كتفها اليمنى. منظر هذا الظهر، وهذا الردف، وهذين الفخذين، ملأ بيرد بتقزّز لم يستطع كبته واقشعّر جلده. استعجل العودة إلى غرفة الجلوس وإلى مقعده المصنوع من أسل الهند وهو يرتعش. ذات يوم، لا يعرف متى، اجتاحه الشعور نفسه، هذا النفور الصبياني الممزوج بالقلق أمام جسد عارٍ. أدرك أن أخطبوط هذا الاشمئزاز سيطوّقه بمجسّاته حتى مع زوجته. هل سيستمرّ ذلك طويلاً؟ هل سيتفاقم؟

فتح القنينة وسكب كأس ويسكي. كانت يده لا تزال ترتجف: قرقع الكأس على عنق القنينة كصوت فأر غاضب. تقزّز بيرد وشرب ما في الكأس دفعة واحدة أحرقت حلقومه. أخذه السعال وملأت عينيه الدموع، ولكن في هذا الوقت تقريباً نقدت معدته متعةً لاذعة وكفَّ عن الارتعاش. تجشأ كولد ابتلع كمية من الفريز البرّي، مسح شفتيه بظهر يده، وملأ الكأس من جديد بيد واثقة هذه المرة، كم ألف ساعة تحاشى الشرب؟ وبحقد لم يكن يصوَّب إلى أحد معيَّن أفرغ دفعة واحدة كأسه الثانية. لم يشتعل حلقه، لم يسعل، وبقيت عيناه ناشفتين. وبتنهيدة لذيذة شرب الكأس الثالثة.

عندما رجعت إيميكو كان سكر بيرد قد بدأ. وبدخولها الغرفة عاد إليه الإشمئزاز لكن الكحول خدَّره. ثم إن الفستان الأسود الذي كانت ترتديه إيميكو راح يموّه تهديد جسدها بجعلها تشبه دباً في رسوم متحركة. فقط بعدما مشطت شعرها أضاءت النور. أفسح لها بيرد مكاناً وصبَّ لها كأس ويسكي وقدح ماء. جلست إيميكو على مقعد خشبي كبير شادةً ثوبها على ركبتيها. كنَّ لها بيرد الإمتنان. كان يسيطر تدريجياً على نفوره لكن هذا لم يكن يعني أنه تغلّب عليه.

ـ «ها إذن!»، قال بيرد وهو يفرغ كأسه.

ـ «ها إذن!»، أجابت إيميكو وهي تأخذ رشفة صغيرة من الكأس.

لأول مرة نظرا في العيون. الآن وهي منتعشة وممشطة لم تكن إيميكو بشعة. لاحظ بيرد بمتعة: قد تكون المرأة التي فتحت له الباب هي أمها.

قالت :

- فكرت في قصيدة وأنا أستحمّ . هل تتذكر؟ «الأولى أن نقتل مولوداً جديداً في مهده من أن نحمّله رغبات غير مشبَعة . . . » .

- مع ذلك لا يمكن قتل جميع المولودين الجدد . . . لمن هذه؟

- وليم بليك . كانت أطروحتي عنه ، ألا تذكر؟

- بلى ، طبعاً .

أدار بيرد رأسه ونظر إلى لوحة لوليم بليك معلّقة على الحائط . لقد رآها مرات عدة لكنه لم يكن يعيرها الإنتباه . صعقه طابع النسخة الغريب : ساحة عامة ، على جانبيها بيوت من طراز الشرق الأدنى ، وفي البعيد هرمان منمنمان . يضيء المشهد نور غسقي ، وفي وسط الساحة جثة شاب ، قربه أمه تبكي عليه ، محاطة بشيوخ يحملون فوانيس ونساء يحملن أطفالاً . لكن حضوراً مهيباً كان يسيطر على المشهد مرفرفاً على المكان بذراعين منبسطين . هل هذا كائن بشري؟ كان الجسد المعضّل الجميل مغطّى بالقشور : عيناه تنضحان ألماً ومرارة ، والفم ثقبُ ظلّ . هل هو شيطان؟ إله؟ كان الكائن كأنه يعلو في السماء ، نحو غليان سماء مظلمة ، محترقاً بشعلة قشوره الخاصة .

سأل بيرد :

- ماذا يفعل؟ هل هو مغطى بالقشور أم يرتدي زرداً كفرسان القرون الوسطى؟

- أظن أنها قشور . في اللوحة الأصلية القشور خضراء . إنها تمثل الطاعون الذي قضى بضراوة على الذكور البكر في مصر .

لم يكن بيرد يعرف الكتاب المقدس جيداً . ربما هو رسم الهرب من مصر . في أية حال ، كانت عينا الشخص وفمه تُظهر الخوف والألم والذهول والعياء والوحدة . وربما كانت هناك أيضاً ضحكة متربصة وراء كل هذا .

قالت إيميكو: إني أعبده.

ـ الرجل ذو القشور؟

ـ طبعاً. أتسلّى أحياناً بتخيُّل ما كنت سأحسه لو أنا شبح الطاعون.

ـ ستشبه عيناك وفمك حينذاك عينيه وفمه بلا شك.

ـ هذا مرعب أليس كذلك؟ في كل مرة ينتابني الخوف أقول لنفسي سيكون أفظع لو كنت أنا التي تُسبّب الخوف... هل تعتقد أنك اخفتَ أحداً مرة بالقدر الذي خفتَ فيه أنت خلال حياتك؟

ـ أتساءل... يجب أن أفكّر في الأمر.

ـ لا، هذه الأشياء لا تحتاج إلى التفكير: يجب أن نعرفها.

ـ للوهلة الأولى، أعتقد أني لم أُخف أحداً.

ـ أنا أكيدة. ليس بعد. لكن ألا تعتقد أن هذا سيحصل لك في يوم ما؟

قال بيرد وهو يملأ الكأسين:

ـ أعتقد أن قتل طفل في مهده سيرعبك، أنتِ وأي واحد غيرك.

رشف ما في كأسه وملأه من جديد. لم تكن إيميكو تتبعه، فسأل:

ـ لماذا لا تشربين؟

ـ لأن عليَّ أن أقود هذاالمساء. ألم أصطحبك ولا مرَّة في سيارتي؟

ـ لا أعتقد. يجب أن نخرج سوية في يوم ما.

ـ تعال في أي مساء. في النهار الأمر خطر بسبب الازدحام. ردود فعلي تكون أسرع بكثير في الليل.

ـ ألهذا تغلقين على نفسك طوال النهار؟ تعيشين حياة فيلسوف، فيلسوف يقود الـ «إم. جي» الحمراء في الليل. ليس هذا سيئاً... ما قصة تعددية الكون تلك؟

رأى بارتياح وجه إيميكو يرتعش: كان ذلك شكلاً من التعـويض عن زيارته المباغتة ونواياه الكحولية. قليل من الناس غيره سينصت إلى هذيانات إيميكو. . . قالت:

ـ الآن نحن جالسان نثرثر في غرفة هي جزء من هذا الذي نسميه العالم الحقيقي. ولكن اتفق أننا، أنت وأنا، موجودان في الوقت نفسه تحت شكلين مختلفين تماماً في لا نهاية عوالم أخرى. . . نستطيع كلانا أن نتذكر أوقاتاً من الماضي كان لنا فيها نصف الحظ في أن نموت ونصف الحظ في أن نحيا. مثلاً عندما كنت طفلة كدت أموت من التيفوئيد، وأذكر جيداً عندما وصلت في ذلك الوقت إلى النقطة الحرجة. كان يمكنني أن أغوص في المـوت أو أصعـد المنحدر ثانيةً وأشفى. طبعاً، إيميكو التي تحدثك الآن اختـارت الشفـاء، ولكن إيميكو أخرى اختارت الموت في الوقت نفسه. هل تفهمني؟ في كل مرة تجد نفسك على منعطف من هذا النوع يكون أمامك عالمان: واحد يفقد كل حقيقة في عينيك لأنك تموت، وآخر يبقى حقيقياً لأنك ستستمر حياً فيه. هذا كما لو أنك تنزع ملابسك: تهجر العالم الـذي لم تعـد فيه سوى جثة وتدخل في ذاك الذي لا تزال تعيش فيه. بكلام آخر، عوالم مختلفة تولد منا كما تنبثق الأغصان والأوراق من الشجرة. . . هذا النوع من التجزؤ الخلوي للكون حدث أيضاً عندما انتحر زوجي. تركني في العالم الذي مات هو فيه، ولكن في عالم آخر حيث يستمر في الحياة هنـاك إيميكو أخـرى تحيا معـه. العالم الذي يتركه رجل وراءه حين يموت شاباً، والعالم الذي يهرب إليه في الموت، كلاهـما حقيقي: العوالم التي تحتوينا تتضاعف باستمـرار. هذا ما أسميه تعددية الكون. . . وهل تريد أن أقول لك شيئاً آخر؟ يجب ألا تكون حزيناً هكذا لموت طفلك يا بيرد، لأنه الآن ينمو في عالم آخر ويصبح قوياً، في هذه الدقيقة بالذات. في هذا العالم هنا أنت والد شاب سكران بالسعادة، وإننا نشرب معاً احتفالاً بالحدث. هل تفهمني؟

كان بيرد يبتسم ابتسامة هادئـة. وصـل الكحـول إلـى أبعـد النقـاط في جسده، واستقرَّ التوازن بين العتمـة الـوردية التـي وُلـدت فيه وبين العالـم الخارجي ـ مع أنه كان يعرف أن هذا الشعور لن يستمر.

أضافت إيميكو:

- ربما لم تفهم تماماً، ولكن أتعرف ما أقصد؟ لا بدّ أن تكون هناك أوقات في حياتك وجدتَ نفسك فيها أنت أيضاً بين الحياة والموت. إذن، في كل وقت من هذه الأوقات تابعت العيش في عالم وتركت جثتك في عالم آخر. ألا تتذكر أوقاتاً كهذه؟

- نعم، بالفعل.

هل كان لما تقوله معنى؟ تساءل بيرد مغالباً النعاس. هل هناك كدسة من بيرد ميت في عشرة آلاف عالم آخر، تلميذ هزيل وخَجِل، طالب بروح أقلّ تعقيداً ولكن بجسد أقوى بكثير من جسده؟ وفي هذه الحال، أي من هذه الأعداد الميتة هو بيرد المرغوب أكثر؟ شيء واحد كان أكيداً: إنه ليس هو، بيرد هذا العالم...

- ولكن إذن، هل يوجد موت نهائي؟ وقتٌ يكون فيه موتنا في هذا العالم يعني أيضاً موتنا في كل العوالم الأخرى؟

- بالتأكيد، والا سنعيش إلى الأبد في عالم واحد على الأقل. الأرجح أننا سنموت نهائياً عندما نشيخ جداً. وحتى ذلك الوقت نعيش جميعنا في عالم أو آخر، في انتظار أن نموت من الشيخوخة...

قاطعها بيرد:

- تستمرين في تعذيب نفسك بسبب انتحار زوجك، أليس هذا صحيحاً؟ تخيلتِ هذه الهذيانات الفلسفية لتنزعي عن الموت خاصته النهائية...

- فكّر ما تشاء... منذ أن تركني زوجي في هذا العالم لم أكفّ عن التساؤل لماذا مات. ليس هذا أمراً مستحباً كثيراً لكني لا أستطيع ولا أنفي مسؤولياتي، على الأقل في هذا العالم.

- لا أبحث عن انتقادك، إيميكو. لكني لا أحب أن أراك تعمين بصيرتك بنفسك.

ابتسم بيرد محاولاً أن يخفف من مذاق السم في كلماته لكنه تابع :

ـ تحاولين أن تعطي طابعاً خاصاً لموت زوجك بالتخيّل أنه لا يزال يعيش في عالم آخر ـ لكنك لا تستطيعين أن تقيمي نسبية مع الموت كمطلق ، أية خدعة نفسية هذه التي تستعملينها؟

ـ ربما أنت محق . . . أعطني بعد قليلاً من الويسكي .

كان صوت إيميكو جافاً لا مبالياً . ملأ بيرد الكأسين متمنياً أن تنسى أزماتها في الشراب وتعود غداً إلى الحلم بعالمها المتعدّد .

مثل مسافر موقّت يزور عالماً اكتمل منذ عشرة آلاف سنة ، كان بيرد خائفاً من أن يكون مسؤولاً عن كل حادث يمكن أن يحدث في العالم اليوم . هذا الشعور لم يكفّ عن التفاقم في نفسه مذ عرف أن ابنه وُلد مسخاً ، ولديه الآن رغبة في مغادرة هذا العالم لفترة ، كرجل معه أوراق خاسرة يمرّر دوره في البوكر .

ابتسما برقة وتابعا الشرب . كانت أصوات الشارع تبدو لبيرد كأنها تأتي من البعيد البعيد . تثاءب ، وأفرغ الكأس دفعة واحدة ، مرة أخرى أيضاً ، ليبتعد أكثر عن هذا العالم . . .

ـ بيرد . . .

انتفض بيرد وفتح عينيه . أحسّ أنه اجتاز المرحلة الثانية من السكر .

ـ ماذا؟

ـ ذاك المعطف من جلد الغزال الذي أهداك إياه عمك . . . أين صار؟

كانت إيميكو تتكلم بصعوبة ، وجهها المستدير أحمر . أجاب بيرد :

ـ سؤال وجيه . . . أذكر أني كنت أرتديه في الصف الأول .

ـ كان معك دائماً في الصف الثاني ، في الشتاء عندما . . .

الشتاء ! وقعت الكلمة كحجر في بركة ذكريات بيرد الراكدة .

ـ صحيح . . . فرشته على الأرض المبلَّلة في الفناء ، ليلة نمنا معاً . في صباح اليوم التالي كان متصلباً من الوحل ونشارة الخشب . لم أستطع بعد ذلك ارتداءه : في ذلك الوقت كانت المصابغ ترفض المعاطف المصنوعة من جلد الغزال . وكان عليَّ أن أرميه . . .

كان بيرد ، وهو يتكلم ، يستعيد تلك الليلة الشتائية . كم هي بعيدة ! كانت سنتهما الثانية في المعهد . شربا معاً كهذه الليلة وكانا ثملين . أعاد بيرد إيميكو إلى بيتها ، وفي فناء الدار أخذها بين ذراعيه . كان الطقس بارداً . ظلّت مداعباتهما مختصرة إلى أن لمست يد بيرد ، سهواً ، شيء إيميكو . حينئذٍ حاول أن يذهب معها إلى الأخير ، وهي عملت جهدها لمساعدته ، ولكن كان عليها أن تتوقف وغرقت في الضحك . أدرك بيرد أنه لن يتوصل إلى شيء إذا بقيا واقفين وشعر بالخزي ، مما جعله يغضب . فرش معطفه على الأرض وتمدَّد فوقها وهي لا تزال تضحك . كانت إيميكو طويلة : رأسها وساقاها تجاوزت المعطف . وفي لحظة توقفت عن الضحك وظن بيرد أنها بلغت الذروة . ولكن حين سألها بعد قليل ، أجابت ببساطة أنها كانت بردانة ، ووقفت الأمور عند هذا الحد .

قال بيرد بنبرة مفكّر ثمانيني :

ـ في ذلك الوقت ، كنت همجياً فعلاً .

ـ أنا أيضاً .

ـ أتساءل لماذا لم نحاول مطلقاً إعادة الكرَّة في مكان آخر .

ـ ما حدث في الفناء كان مستهجناً إلى درجة أنه بدا لي في صباح اليوم التالي أمراً لا يمكن أبداً أن يتكرر .

قال بيرد متضايقاً :

ـ نعم ، كان غريباً . . . عارضاً ، اغتصاباً تقريباً .

ـ تقريباً؟ بل كان اغتصاباً !

ـ أحقاً لم تشعري بأية متعة؟

ـ ماذا تتصور؟ على كل حال كانت هي المرة الأولى بالنسبة إليّ.

نظر بيرد إلى ايميكو بذهول. كان يعرف أنها ليست امرأة كاذبة أو مازحة. تغلّب حينئذٍ حسُّ الضحك لديه على الضيق وراح يضحك. وإيميكو ضحكت أيضاً.

قال واحمرار وجهه لم يكن من الويسكي وحده:

ـ الحياة مليئة بالمفاجآت.

ـ لا تنفعل. العذرية لم تكن تهمُّ أحداً غيري، هذا إذا كنت أهتم. أنت لم يكن يعنيك ذلك في شيء.

أفرغ بيرد كأسه من جديد. حاول أن يتذكر حادثة الفناء بدقة أكثر. بالفعل، يذكر وجعاً شعر به لولوج إيميكو ـ لكنه اعتقد في حينه أن البرد كان يجعلها تنقبض. كان يجب مع ذلك أن يعرف الحقيقة في صباح اليوم التالي وهو يرى آثار الدم على قميصه...

أحس أن الرغبة تتصاعد فيه بغرابة. عضّ على شفتيه كأنه يغالب الألم، وقبض بقوة على كأسه. كان يشعر في عمق جسده بعقدة من التخوف والرغبة، شبيهة بالألم والقلق اللذين يسبقان نوبة قلبية. لم يكن ما يقاسيه بيرد تلك الرغبة الغامضة (التي هي بالكاد شامة على وجه الحياة اليومية المقطّب، نقيض حلمه الأفريقي) التي كانت تراوده مرة أو اثنتين في الأسبوع وكان يتحرّر منها بالنوم مع امرأته. لا، لم تكن رغبة مبتذلة تنتهي في وحل إرهاق كئيب، مع دمدمة شبقة أو شبه لامبالية ـ إنما هي رغبة لا يستطيع تسكينها ألفُ تكرار للعملية، رغبة تجعلك تتساءل بضيق، لحظة الإرتواء، ما إذا كان الموت قد صعقك. رغبة كان سيشبعها بيرد، ذات ليلة شتائية في الفناء، لو عرف أنه كان يغتصب عذراء...

رمى إيميكو بنظرة سرعوب من عينيه المحمرتين بالكحول. كان دماغه

محتقناً، وكانت إيميكو وسط دخان السكائر كأنها تبحر على الضباب. تنظر إلى بيرد بابتسامة لاهية لكن عينيها لا تريان شيئاً. كانت ضائعة في حلم من الويسكي، وبدا جسدها أنعم وأكثر استدارة، خصوصاً وجهها الأحمر المحموم. فكّر بيرد بكآبة: فقط لو أستطيع تكرار ذاك المشهد في الفناء... لكنه كان يعرف أن ذلك مستحيل. إذا ناما معاً من جديد، لن يستطيع بيرد أن يكفّ عن التفكير في شيئه المضحك كما رآه هذا الصباح وهو يرتدي ثيابه، وبذاك الذي لامرأته الممطوط بمجهود الولادة. سيكون فعل الجنس، لبيرد وإيميكو، موصولاً بالطفل المائت، بكل تعاسات البشر، بشقاء منهك يتظاهر الناس الذين يوفّرهم بالتقليل من شأنه (يسمون هذا الموقف «نزعة إنسانية»). تسامي الرغبة؟ أية مزحة! لو أراد بيرد أن يعيد خلق التوتر الجنسي الرائع الذي جبل طينه ليلة الفناء الشتائية تلك، لتوجَّب عليه على الأرجح أن يخنق إيميكو... كان صوت شهوته يقول له: «إقتلها وضاجعْ جثتها!». لكن بيرد كان يعرف أنه لن يذهب أبداً إلى هذا الحد في وضعه ذاك. حاول أن يطرد هذه الأفكار، غير أن دب القلق والرغبة الصغير لم يدعه ينجح في ذلك. إن لم تكن قادراً على قتلها واغتصاب جثتها، جدْ إذن شيئاً آخر. بحث بيرد عبثاً، يجرّده من سلاحه جهلُه الخطر والانحراف. حينئذٍ كرع ما في كأسه كلاعب كرة سلة يكرع كأس ماء بعد طرده من الملعب لارتكابه أخطاء كثيرة: بمزاج سيىء، وباحتقار نفسه، وبتقزز واضح، فقدت الويسكي قوتها وشذاها: لم تكن حتى مُرَّة.

سألت إيميكو: هل تشرب الويسكي دائماً أقداحاً دفعة واحدة كالشاي؟ أنا لا يمكنني أن أشرب حتى الشاي الساخن بهذه السرعة...

همهم بيرد: عندما أشرب، أشرب هكذا دائماً.

- حتى ولو كنت مع امرأتك؟

- لماذا؟

- لا يمكنك أن تشفي غليل امرأة بعد أن تشرب بهذه الطريقة. حتى اني أشك في قدرتك على فعل أي شيء...

- أترغبين في النوم معي؟

- لا ، شربت كثيراً. لا جدوى من ذلك .

لمس بيرد شيئه من خلال ثقب في جيب بنطاله - فأرة نائمة، لطيفة، حارة، مضحكة، ملتوية، لا علاقة لها مطلقاً بالدب الصغير المشتعل في صدره . سألته إيميكو بهدوء وقد رأت حركته :

- لا يمكن فعل شيء، أليس كذلك؟

- مع ذلك أستطيع أن أمتعك . . .

- ليس الأمر بهذه السهولة، تعرف . . . يبدو أنك لا تذكر جيداً ما جرى في الفناء، وهذا طبيعي. لكنه بالنسبة إليَّ كان مُسارَّة، باردة، وسخة، مضحكة ومثيرة للشفقة. بعد ذلك خضتُ تجارب عديدة، بيرد، وذاك كان دائماً صراعاً.

- هل حوَّلتك إلى امرأة باردة؟

- إذا كنت تقصد اللذة العادية، لا : اكتشفتها وحدي وبسرعة كبيرة. استعنت لذلك ببعض أولاد صفي حتى قبل أن يتيبس وحل الفناء تحت أظافري. لكني منذ ذلك الوقت لم أكفّ عن البحث عن لذة تكون أكبر دائماً.

- أهذا كل ما فعلته بعد المعهد؟

- حتى قبل أن أغادر المعهد. اعتبرْ أني لم أفكّر أبداً في شيء آخر.

- يجب أن تكوني مكتفية . . .

- لا ، بيرد. يوماً ما سأبرهن لك ذلك . . . إلا إذا كانت ذكرى الفناء لا تكفيك؟

- أنا أيضاً سأريك ما تعلمته منذ ذلك الوقت. فلنكفّ عن التناقد مثل صيصان مكبوتة، ولننم . . .

ـ شربتَ كثيراً، بيرد.

ـ أتظنين أن القضيب هو العضو الوحيد الذي يعتمد عليه في الحب؟ تبدو لي هذه النظرة ناقصة لامرأة تبحث عن الذروة القصوى . . .

ـ بماذا ستستعين إذن؟ بأصابعك؟ بفمك؟ بأنفك الطويل ربما؟ . . . آسفة، هذا لا يغريني. إنه يشبه الإستمناء إلى حد كبير.

قال بيرد مقطباً وجهه:

ـ على الأقل أنت صريحة.

ـ ثم إنك لا ترغب فعلاً يا بيرد. لديَّ انطباع بأن الجنس يقزّزك اليوم. إذا نمنا معاً فكل مايمكنك فعله هو أن تنهار بين ساقيَّ وتتقيأ. سيكون تقزّزك أقوى منك. ستتقيأ عليَّ يا بيرد. حدث هذا مرة معي وكان فظيعاً . . .

قال بيرد بضنًى:

ـ للاختبار حقوقه. ما تقولينه صحيح.

استدركت إيميكو لتواسيه:

ـ لا شيء يدعو إلى العجلة.

ـ لا، لا شيء يدعو إلى العجلة. هناك أبدية فلا داعي إلى العجلة، عندما كنت مراهقاً كنت دائماً مستعجلاً. أتساءل حقاً لماذا . . .

ـ ربما لأن وقتاً قليلاً جداً يكون لنا عندما نكون أولاداً. أقصد: إننا نكبر بسرعة . . .

ـ نعم، كبرتُ بسرعة. والآن أنا أكثر شيخوخة من أن أكون أباً. ها أنت ترين، لم أكن مهيئًا لأكون أباً، ولذلك لم أكن كفؤاً ليكون لي طفل طبيعي. أتظنين أني سأصبح كفؤًا يوماً ما؟ أنا لست واثقاً.

ـ لا أحد يكون واثقاً في هذه الهيولات، بيرد. عندما يصبح لك طفل طبيعي ستعرف أنك والد طبيعي . . . وتستعيد الثقة.

شعر بيرد بالعزاء وقال :

ـ أنت فعلاً أصبحت مليئة بالحكمة، أريد أن أسألك . . .

كان يغالبه النعاس ويعرف أنه لن يستطيع مقاومته طويلاً . أوشك أن يشرب أيضاً، لكنه عدل ودفع كأسه التي تدحرجت على الأرض .

ـ أريد أن أسألك إيميكو، عندما يموت واحد في مهده إلى أي عالم يذهب؟

ـ إذا كان هناك عالم آخر فيجب أن يكون بسيطاً جداً . ولكن، ألا تستطيع أن تؤمن بعالمي المتعدد؟ في عالمي هذا سيعيش طفلك حتى التسعين!

ـ نعم . . . طيّب . سأذهب إلى النوم . أهو المساء الآن؟ أيمكنك أن تري إذا أظلمت في الخارج؟

ـ إنه منتصف النهار، بيرد . إذا كنت تريد أن تنام استلقِ على فراشي سأخرج حين يحلّ الليل .

ـ ستتركين صديقاً تعساً من أجل سيارة «سبور»؟

ـ حين يكون الصديق التعس سكراناً فالأفضل تركه وشأنه . وإلا قد نندم كلانا بعد ذلك .

ـ تماماً! أنت بالتأكيد الحكمة مجسَّدة في شخص . إذن تجولين هكذا في السيارة كل الليالي؟ حتى الفجر؟

ـ أحياناً . عليَّ أن أقوم بدوريات، كالنعس الذي يبحث عن الأولاد الذين لا يستطيعون النوم . . .

تمكَّن بيرد بصعوبة من رفع نفسه عن المقعد . وضع ذراعاً على كتفي إيميكو وتركها تقوده إلى غرفة النوم . كان رأسها شمساً من نار يرقص فيها قزم صغير عجيب . أضحك هذا بيرد . وحين انهار على السرير وُفّق إلى القول بنبرة فيها عرفان جميل :

ـ إيميكو، أنت جدَّة حقيقية لي . . .

ونام .

عند الغسق ، بالكاد عكّر نومه هدير السيارة التي كانت تقلع .

مرتين خلال السهرة أيقظته أصوات مكمودة لكنَّها ملحَّة ، كانت تنادي إيميكو من الفناء . في المرة الأولى صوت مراهق ، وفي الثانية صوت رجل ناضج . نهض هذه المرة وأزاح ستارة النافذة التي كانت تنظر منها إيميكو إليه حين مجيئه . رأى في ضوء القمر الشحيح رجلاً قصيراً يرتدي بذلة سموكنغ بيضاء تظهر ضيقة جداً عليه . لفظ الزائر الليلي اسم إيميكو بتعبير غريب يحمل الضيق والنفور في الوقت نفسه . ترك بيرد الستارة تنسدل من جديد وذهب يبحث عن قنينة الويسكي في غرفة الجلوس . كرع دفعة واحدة كل ما بقي في القنينة تقريباً ، ونام في الحال .

- ٥ -

جاء الأنين أقوى من الرقاد. استيقظ بيرد على مضض. اعتقد في البدء أنه هو الذي كان يتأوه. وبالفعل عندما فتح عينيه، وخز عشرة آلاف شيطان أحشاءَه بسهام صغيرة وصعدت أنة إلى شفتيه ـ لكنه سمع أنةً أخرى. رفع رأسه ورأى إيميكو نائمة على الأرض العارية، بين السرير وجهاز التلفزيون. كانت هي التي تتأوه كحيوان مذعور.

في الضوء الخافت رأى بيرد الوجه الفتيَّ المستدير والشاحب يتشنج كما يفعل الألم، ثم يسترخي. كان الغطاء منزلقاً حتى خصر إيميكو. وكان في صدرها شيء من الصبا تخيَّل بيرد أنه يعرفه، لكن خاصرتيها وانتفاخ بطنها المستتر نصفه بالغطاء لم توقظ فيه أي حنين. تباشيرُ سمنة بدأ العمر ينذر لها هذا الجسد، وبدأت مسحة الشحم تتقاسم الحياة الجديدة لايميكو. هذا لم يكن يعجب بيرد. جسد إيميكو سيتبدل بكامله تقريباً وثدياها سيفقدان أيضاً ما تبقى لهما من فتوَّة ونضارة.

تأوهت مرة أخرى وفتحت فجأة عينيها كأنها استيقظت مذعورة. تظاهر بيرد بالنوم. عندما فتح عينيه ثانية كانت إيميكو نامت من جديد، صامتة هذه المرة، ومستريحة كمومياء، ملتفة بالغطاء حتى عنقها ـ لا شك أنها عقدت هدنة مع غيلان حلمها.

أغمض بيرد عينيه من جديد وتكوَّر على بطنه. بدت له معدته كأنها تملأ

كل جسده، ونتفٌ من الأفكار كانت تحاول أن تتكون لديه: متى رجعت إيميكو؟ هل بدأوا بتشريح الطفل؟ هل سيكون في حالة تسمح له بالذهاب إلى المدرسة اليوم؟ غير أن معدته المزعجة كانت تطرد هذه الأسئلة الواحد بعد الآخر. شعر بيرد أنه سيتقيأ وجعله الخوف يعرق. ماذا ستقول عني إذا وسخت سريرها؟ ذات يوم وأنا سكران فضضت بكارتها، بل تقريباً اغتصبتها، في فناء في قلب الشتاء، حتى دون أن أدرك ذلك... والآن، بعد سنوات، أقضي الليل في غرفتها سكراناً تماماً، ولا أستيقظ إلا لأتقيأ. أي قذر أنا!... تجشأ أكثر من مرة وقعد على السرير. جعله الصداع يئن. قام بصعوبة واتجه نحو الحمَّام، مكتشفاً بدهشة أنه عار إلا من سرواله الداخلي.

شعر ببعض الانفراج وهو يغلق وراءه الباب الزجاجي المبرغل: هل سينجح في إفراغ معدته دون أن تنتبه إيميكو؟ عليه ألا يحدث ضجة، أن يتقيأ بلطف جرادة...

ركع على ركبتيه وأسند مرفقيه على مقعد المرحاض، أخفض رأسه وانتظر، فيَ وضع المصلّي، أن يصل توتر معدته إلى حدّه.

جاء تهوُّعه الأول عنيفاً. بدر منه صوت يشبه العواء، تصلبت رقبته، وارتفع بطنه. صعد سائل حارق إلى حلقه وامتلأت عيناه بالدموع. تقيأ على دفعتين. ومثل عامل رصاص عليه أن يتمَّ عمله، نهض بصعوبة ومسح فمه بورقة مرحاض ثم تمخَّط بقوة. هل انتهى؟ للأسف لا، كان يعرف ذلك غير أنه سحب طرَّادة الماء لينظف المرحاض الوسخ، ثم وضع اصبعين في فمه ليرغم نفسه على التقيؤ من جديد. بعدما فعل، مسح أصابعه وفمه وخديه المليئتين بالدمع وجلس على المرحاض. أيوازي هذا الاختيار آلام الطفل ولو جزئياً؟ هذه الفكرة اخجلته: إذا كان هناك من ألم عقيم، فإنما هو الترنُّح الذي يعقب السكر.

مع ذلك فإن انفراجه والهدوء النسبي لوجع رأسه منحاه، ولو موقتاً، بضع دقائق من الراحة هي الأولى منذ استيقاظه: فكر أن أمامه أعمالاً كثيرة: المدرسة تنتظره، وهناك أوراق يجب أن يملأها في المستشفى، فالطفل على

الأرجح مات لساعته، وعليه أن يقابل حماته ويتفاهم معها حول موضوع زوجته. ومسخرات أخرى مرهقة وعبثية على التوالي... فعلاً، هذه النصف ساعة من التراخي كان لها تقريباً نكهة الهدنة. لو كان الأمر ممكناً لاختار بيرد أن يقفز في المرحاض ويشد طرادة الماء تاركاً نفسه ينجرف في جحيم التقزز...

كان تقريباً قد نسي إيميكو. عندما خرج من الحمام رأى أنها مستيقظة وعرفت ما جرى. كانت لا تزال ممدَّدة على الأرض. التقط بيرد قميصه وبنطاله عن الأرض قرب السرير وسأل بشيء من الخجل:

- هل سمعتني أتقيأ؟

- نعم. كان لا بد من ذلك... ارتحت الآن؟

- في الوقت الحاضر... لكني متأكد أن هذا سيعاودني خلال الصباح؛ دائماً هكذا. لم أشرب منذ مدة طويلة وأشعر بالترنح، ولكن هذا أسوأ ترنُّح أتذكره. في الماضي، حين كان يحدث لي ذلك، كنت أطرده بمعاودة البدء بالشراب...

- لماذا لا تجرّب الآن؟

- لا يجوز أن أسكر اليوم.

- عصير الحامض سيفيدك. هناك حامض في المطبخ.

رمى بيرد طائعاً نظرةً إلى المطبخ. كانت هناك نحو دزينة من ليمون الحامض في المغسلة التي يضيئها شعاع شمس كأنه خارج من لوحة من المدرسة الفلمندية.

سأل وهو يكمل تزرير قميصه وبنطاله:

- أتشترين الحامض بهذا المقدار دائماً؟ بالفعل، متى رجعتِ؟ عند الفجر؟

نظرت إليه إيميكو بسخرية دون أن تجيب. أضاف:

- إثنان من أصدقائك جاءا منتصف الليل. شاب، كما اعتقد ورجل له بعض العمر ورأس بشكل بيضة. رأيته من النافذة لكني لم أكلمه.

قالت بلا مبالاة: آمل ذلك.

تناول بيرد ساعة اليد من جيب معطفه ونظر إلى الوقت. الساعة التاسعة. صفه يبدأ في العاشرة. يجب أن تكون لديه شجاعة مقدّسة ليغيب دون أن يُبلغ الإدارة، أو حتى ليصل متأخراً. ولم يكن بيرد لا متهوراً ولا أحمق بهذا المقدار. فعقد ربطة عنقه خبط عشواء.

قالت إيميكو: نمت مع كليهما مرتين أو ثلاث، ويعتقدان أن هذا يخوّلهما المجيء إلى هنا في منتصف الليل. الأصغر شاب فاسق: ما يهمه ليس أن ننام معاً، بل حلمه أن يجدني في السرير مع شخص آخر وأن يشارك.. ينتظر دائماً أن يكون واحد معي هنا ليظهر. ورغم ذلك هو غيور بشكل مخيف.

- هل منحته الفرصة ليحقق رغبته؟

- طبعاً لا!... هذا الصبي لديه ضعف تجاه الناضجين مثلك. إذا التقيته مرة سيفعل أي شيء لإرضائك. لكني أراهن أنك تعرف ذلك! ألم يكن في المعهد مراهقون أصغر منك يعبدونك؟ ويجب أن يكون في صفك تلامذة متفانون بشكل خاص، لا؟ رأيت فيك دائماً نوعاً من الأبطال للصبية المتخلفين...

هز بيرد رأسه وذهب إلى المطبخ. انتبه إلى أنه لم يرتد جواربه - لكنه إذا انحنى لإلتقاطها سيجازف في التقيوء من جديد. ثم إن ملامسة أرض الغرفة الباردة لم تكن شيئاً بغيضاً وأحس بلذة غامضة في لمس ليمونات الحامض الطرية. انتقى واحدة كبيرة، قطعها إلى اثنين وعصرها في فمه. كان ذلك جيداً. وعاد إلى الغرفة وبحث بعينيه عن جواربه، متحاشياً الإنحناء.

قال لايميكو: هذا الحامض أعاد ترميمي.

- على كل حال إذا تقيأت أيضاً سيكون الطعم أقل كراهية...

- شكراً على هذا الكلام الجميل.

- عمَّ تبحث؟

- جواربي.

- إنها في حذائك. هكذا لا يكون عليك أن تنحني سوى مرة واحدة.

نظر إليها بيرد. لا شك أنها تتخذ دائماً هذا الاحتياط حين يقضي واحد من عشاقها الليل عندها، ليستطيع الإنسحاب بسرعة إذا ظهر واحد آخر بغتة.. قال:

- الأفضل أن أذهب. لديَّ صفَّان هذا الصباح. شكراً على كل شيء.

- تعود؟... ربما يحتاج واحدنا إلى الآخر، بيرد.

لم يكن بيرد سيدهش أكثر لو سمع أخرس يصرخ. نظرت إليه إيميكو بوقار. فقال:

- ربما أنت على حق.

شقَّ طريقاً في فوضى الغرفة الغارقة في العتم، مثل كشاف يتخبط في مستنقع. وصرخ من بهو المدخل وهو يرتدي على عجل جواربه وحذاءه: إلى اللقاء! نامي جيداً.

لم تجب إيميكو.

بدا نور الشمس الصباحية لبيرد حامضاً كالخل. لاحظ، وهو يعبر من أمام سيارة الـ «أم. جي.» الحمراء، أن المفتاح لا يزال على لوحة القيادة. سيكون من دواعي الحظ لسارق أن يذهب بها. فكر بيرد في إيميكو بحزن. كيف تحولت هذه التلميذة النشيطة، اليقظة والرقيقة، إلى امرأة بلا هدى. تزوجت لتجد زوجها ينتحر، واليوم، بعد ليال تقضيها متجولة بسيارتها، تحلم

أحلاماً تجعلها تنوح من الرعب . . . قرب أحد دواليب السيارة عقب سيجار لا شك أن رجل السموكنغ تركه يسقط هناك في الليلة الماضية . لا بد أن لإيميكو عدداً كبيراً من الأصدقاء أكثر حميمية من بيرد . . .

نفض نفسه وتنفس بعمق محاولاً أن يطرد ترنُّحه الذي لا يزال يهدّده ولكن عبثاً . وابتعد حاني الرأس .

الأسوأ هو قطار الضاحية الذي كان لا بدَّ أن يستقلَّه للوصول إلى المدرسة . ومع ذلك صمد بيرد أمام الاهتزازات ورائحة الأجساد الأخرى . من بين جميع الركاب كان عليه وحده أن ينضح عرقاً ، كأن حرارة الصيف اتخذته الضحية الوحيدة . كان الذين إلى جواره ينظرون إليه نظرة مرتابة ، فجاب المقطورة بنظره باحثاً عن مكان يستطيع أن يهرع إليه إذا شعر من جديد بأنه على وشك التقيؤ .

حين وصل أخيراً إلى بوابة المدرسة أحس نفسه جندياً عجوزاً تنهكه بعد المعركة مسافة تقهقر طويلة . لكن الأسوأ لا يزال ينتظره ، لأن العدو كان قد طوَّقه وجاهز للهجوم عليه .

تناول من جاروره في غرفة الخزائن كتاباً موجزاً وعلبة طباشير ، غير أنه لم يجرؤ على حمل القاموس الثقيل . العديدون من تلاميذه كانوا يعرفون الإنكليزية أفضل منه : إذا وقع على كلمة يجهلها أو على جملة معقّدة ، سيطلب منهم أن يحزروا معناها . تلامذة بيرد رؤوسهم محشوة بالمعلومات ؛ دوره هو فقط أن ينظمها ، مع أنه غالباً ما تساءل إذا كان كفؤاً لذلك .

حرص بيرد أن يستقلَّ المصعد ويعبر من الباب الخلفي ، آملاً أن يتجنب لقاء مديره ، خريج جامعة ميشيغن الواثق من نفسه والذي لا يفوته شيء . الدَرَجُ جلب له الدوار . صعده ببطء كبير حتى أن بعض الطلبة كانوا ، وهم يتجاوزونه ، يتوقفون لينظروا إليه بفضول . حين وصل أخيراً إلى فوق تنفس بارتياح . هنا ناداه واحد باسمه وشعر بيرد مجدداً بالضيق . كان المنادي صديقاً له ، يدير شؤون قسم يدرّس اللغات السلافية كان بيرد انشأه مع بعض

المترجمين الآخرين. إلا أن هذا اللقاء غير المنتظر جاء غادراً بالنسبة إلى بيرد المشغول بلعبة الهر والفأر مع ترنحه. فانغلق على نفسه مثل صدفة مهددة بمهاجم مفاجىء.

- هاي! بيرد... (كل أصدقائه كانوا ينادونه هكذا). منذ مساء البارحة وأنا أحاول عبثاً الإتصال بك. لهذا جئت... هل تعرف ما جرى للسيد «ديلشيف»؟

سأل بيرد بخشية غامضة: ماذا؟

كان السيد ديلشيف، الملحق في مفوضية إحدى دول البلقان الشيوعية، استاذ قسم الدروس الذي يعمل فيه صديق بيرد.

- يبدو أنه تزوج من فتاة يابانية منذ أسبوع ولا يريد العودة إلى المفوضية. تريد المفوضية أن تحافظ على سرّية الموضوع وتجده. لكن الفتاة تعيش في الحي الأكثر شعبية في «شينجوكو» ولا أحد من المفوضية يعرف المكان جيداً للقبض عليه. هنا وجب علينا التدخل: طلبت المفوضية من قسم الدروس مساعدتها. على كل حال نحن مسؤولون جزئياً...

- مسؤولون؟

- تعرَّف ديلشيف إلى الفتاة في بار نحن أخذناه إليه بعد أحد الإجتماعات، كما تعرف جيداً: بار «بولمان كار»... ألا تذكر تلك الفتاة القصيرة الغريبة المظهر، ذات الوجه المنتفخ؟

نعم، بيرد يذكرها.

- لكن، حتى انها لا تتكلم الإنكليزية والسيد ديلشيف بالكاد يتكلم اليابانية... كيف أمكنهما التفاهم؟

- هنا السر بالضبط... ما الذي استطاعا فعله منذ ثمانية أيام؟

- ماذا سيحدث إذا لم يعد السيد ديلشيف إلى المفوضية؟

هل سيتهمونه بالانشقاق ، أو بشيء من هذا النوع ؟

ـ طبعاً .

قال بيرد عابساً : إنه يبحث فعلاً عن المتاعب .

ـ يجب أن يجتمع القسم لإيجاد حل . هل أنت حر هذا المساء ؟ . . .

ـ أنا . . . لا ، غير ممكن .

ـ هيا ، بيرد أنت الذي كنت الأقوى صلة بالسيد ديلشيف ! إذا قررنا أن نرسل له مندوباً من القسم ستكون أنت الأكثر كفاءة . . .

ـ مندوب ؟ في أية حال ، لن أستطيع أن أكون حراً هذا المساء . . .

وجهد بيرد ليضيف :

ـ وضعت امرأتي طفلاً لكن الأمر لم يمرّ بسلام . الطفل ميِّت الآن أو أنه يموت .

قال الصديق مقطباً : تباً للأمر !

أخذ الجرس يرن فوق رؤوسهم . وتابع صديق بيرد :

ـ شيء رديء ، رديء فعلاً . . . آسف . سنتدبر الأمر من دونك . . . لا تدع نفسك تنهار يا صديقي . كيف امرأتك ؟

ـ جيدة ، شكراً .

ـ عندما نقرر شيئاً سأعلمك . . . لك خصال سيئة ، أنت تعرف . إنتبه إلى نفسك .

كرر بيرد : شكراً .

رأى صديقه ينزل السلم بسرعة كهارب وأخذ على نفسه أنه لم يتكلم عن ترنحه .

عندما دخل الصف أخافته الوجوه المئة التي استدارت نحوه . أخفض

رأسه، صعد إلى المنصة، وفتح فوراً الكتاب الموجز على الصفحة حيث قطع درسه في الأسبوع الفائت. بدأ يقرأ بصوت عال وفهم حينها فقط أن الأمر يتعلق بنص لهمنغواي. كان الكتاب انطولوجيا لمختارات من الكتَّاب الأميركيين المعاصرين، اختارها المدير لأنه يحبها ولأن كل نص كان محشواً بأفخاخ نحوية.

همنغواي... هذا يعيد شيئاً من الشجاعة إلى بيرد. كان يحب خصوصاً «تلال أفريقيا الخضراء». لكن نصّ الكتاب كان مقطعاً من «الشمس تشرق أيضاً»، حيث يسبح القصَّاص في بحر هادىء.

شعر بيرد في أعماق جسده بضيق جديد ينبت. كان حلقه يابساً ولديه انطباع أن لسانه ينتفخ. جعله الخوف يعرق، غير أنه تابع القراءة رامياً نظرات خفيَّة نحو الباب. لو توضَّح ضيقه، هل سيكون لديه الوقت للخروج؟ ولكي يفكر في شيء آخر غير معدته، جرَّب أن يضع المقطع الذي يقرأه في سياق النص الكامل... بعد أن يستحم البطل في النهر، يعود إلى فندق حيث تنتظره برقية من عشيقته التي ذهبت مع مصارع ثيران شاب. جهد بيرد أن يتذكر نص البرقية: «أيمكنك المجيء، أوتيل مونتانا مدريد، عندي مشاكل. بريت...» نعم هذا هو النص. دليل جيد: من جميع البرقيات التي قرأها، كانت هذه الأكثر إثارة. قال لنفسه باعتقاد باطل أنه إذا نجح في قراءة النص حتى آخره، حتى البرقية الشهيرة، سيطرد الخطر.

صمت فجأة غير قادر على المتابعة. وخلال ثوان خمس لا تنتهي نظر إلى رؤوس المئة جاسوس تلتفت إليه وجرَّب أن يبتسم، ثم سقط على ركبتيه وراح يتقيأ مدمدماً. عندما انتهى الغثيان، نهض دامع العينين ومسح فمه بظهر يده وقال بصوت أبح:

- بسبب الظروف، انتهى الصف اليوم.

بدا أن التلاميذ فهموا. تناول بيرد الكتاب وعلبة الطباشير، ولكن فجأة انتصب رأس من رؤوس الجواسيس وراح يصرخ. كان وجه هذا الصبي

الفلاحي المتخنث أحمر. ماذا كان سيقول؟ بقي بيرد فترة حتى فهم أنه يوبخه بعدوانية على سلوكه، وأنه يتكلم بنبرة خطابية عن قسط الدروس المرتفع، والوقت القليل المتبقي لامتحانات الدخول إلى المعهد، وعن نقصان كفاءة بيرد التعليمية وغضب رفاقه. تحول انذهال بيرد تدريجياً إلى خوف. لقد رأى الآن نقمة مهاجمه تستميل زملاءه، وتخيل نفسه محاطاً ومهاجماً من مئة راسب ساخط، وأدرك أنه لم يفهم مطلقاً تلاميذه وأن توعكه يجعله غير قادر على الوقوف في وجه هذا العدو ذي المئة رأس.

كان متّهمه الآن، وهو يهتاج أكثر فأكثر، على حافة البكاء، لكن بيرد كان عاجزاً عن مقاطعته أو الإجابة عليه. منذ أن تقيأ أصبح حلقه يابساً مثل قشة، ويشعر أن أقصى ما يستطيعه هو إرسال صيحة عصفور صغيرة. ماذا يفعل؟ ما حصل له كان أسوأ من كل التجارب التي يمكن أن يتصورها، بما فيها أحلام مجازفاته الأفريقية المحتملة. إنه هو الآن الذي يتمنى أرسال برقية طلباً للنجدة ـ ولكن لمن؟

في هذا الوقت وقف غلام آخر وسط القاعة وقال بصوت هادىء لرفيقه:

ـ تجاوز الأمر، أتريد؟ كفّ عن النواح...

في الحال خفّ التوتر الذي كان بدأ يعلو في الصف، وحلّ مكانه هيجان هازىء. انفجر التلاميذ بالضحك. استغل بيرد الفرصة ليتجه نحو الباب. وفيما هو يخرج جعلته صيحات جديدة يلتفت. كان الولد الذي هاجمه يقف على الأربعة حيث تقيأ بيرد ويصرخ:

ـ رائحة ويسكي! أنت تترنّح أيها القذر! سأجعل الرئيس يطردك!

هرب بيرد، تلاحقه حتى الدرج ضحكات تلاميذه.

- ٦ -

توقف بيرد متحيراً عند مفترق المماشي التي تؤدي إلى مختلف أقسام المستشفى. مريض شاب كان يقترب في مقعده النقال توقف هو أيضاً بانزعاج ليدع بيرد يعبر. لاحظ بيرد أنه بلا قدمين وتراجع خطوة. تطلّع إليه المريض بعدوانية كأنه يرى فيه نموذج كل البشر الذين يستطيعون التنقل على أقدامهم، ثم تابع طريقه بسرعة مدهشة.

قال بيرد لنفسه إذا كان الطفل لا يزال حياً عليه أن يذهب مباشرة إلى غرفة المراقبة، أما إذا كان ميتاً فإلى المكتب ليتخذ الترتيبات اللازمة للتشريح وحرق الجثة. طُرَّة أم نقشة؟ أخذ وجهة المكتب مختاراً موت الطفل. هذا الإختيار جعله العدوَّ الحقيقي للطفل، عدوَّه الأول، الأردأ. وفكّر: إذا كانت هناك حياة أبدية وإله يحاكم البشر، فسيُعلن أنه المذنب. غير أن هذا الذنب، كالكآبة التي اجتاحته في سيارة الإسعاف حين ذكّرته ضمادات الطفل بأبولينير، كان له تقريباً مذاق لذيذ.

أسرع الخطى كأنه ذاهب للقاء عشيقة، نافد الصبر كي يسمع أن الطفل مات ويتخذ الترتيبات اللازمة (بالنسبة إلى التشريح الأمر سهل، لأن المستشفى سيهتم هو بالأمر مع المسؤول الأول؛ أما حرق الجثة، فهذا ما سيكون على الأرجح عملاً مرهقاً. . .). غداً أبكي الطفل وحدي وأخبر زوجتي. سأقول لها مات من جرح في رأسه وأن ذكراه أصبحت رباطاً جسدياً

بيننا، أو شيئاً من هذا النوع. سنحاول أن نعيش حياة عائلية طبيعية ـ ثم، من جديد، الرغبات الوهمية نفسها، وستبقى أفريقيا دائماً بعيدة إلى درجة اليأس.

عرَّف بيرد بنفسه حاني الرأس للممرضة الجالسة وراء كوَّة مكتب الاستقبال وشرح لماذا هو هنا.

قالت بابتسامة ودّية:

ـ آه، نعم. تريد أن ترى الطفل ذا الفتق الدماغي... عليك أن تذهب إلى غرفة المراقبة. تعرف أين؟

أجاب بيرد بصوت أبح:

ـ نعم. تقصدين أنه لا يزال حياً؟

ـ بل طبعاً! يأخذ حليبه بلطف وهو قويّ جداً. تهانيَّ!

ـ لكن هذا الفتق الدماغي...

ـ نعم، إنه بالضبط فتق دماغي. هل هو طفلك الأول؟

فعل بيرد «نعم» برأسه وتوّجه بسرعة إلى غرفة المراقبة. خسر إذن رهانه. ماذا سيكون الثمن؟

التقى مجدداً مريض المقعد النقّال، ولكن هذه المرة اكتفى بيرد بأن رماه بنظرة لا مبالية وكان على الآخر أن يتنازل له عن المرور. إنها غلطته إذا كان بلا قدمين: لم يكن بيرد قادراً على التأثر بأقدار الآخرين. لا يزال الترنّح يغنّي في رأسه ومعدته اغنيته السامة. كان تنفسه قصيراً وقدّر أن لهاثه نتن.

عند مدخل القسم قال اسمه أيضاً لاحلى الممرضات بصوت خافت كأنه يبوح لها بسرّ معيب. شعر من جديد بالضيق الذي انتابه ليلة عرف أن الطفل غير طبيعي. أدخلته الممرضة. وبينما كانت تغلق الباب وراءه رأى بيرد نفسه في مرآة بيضوية معلّقة على الحائط. وجه شاحب يتصبب عرقاً، شفتان نصف

مفتوحتين، عينان مطفأتان ومتهججتان ـ وجـهُ منحرفٍ شرير. جعله التقزّز يشيح نظره، لكنه لم يستطع الإمتناع عن التفكير في أن ذكرى هذا الوجه سترافقه.

سألت الممرضة كأنها تسأل والد أجمل طفل في المستشفى:

ـ أيمكنك أن تقول لي أي واحد هو لك؟

مع ذلك لم تكن تبتسم ولم تكن لها كذلك هيئة المهتمين به. لا بدَّ أن هذه قاعدة مكرَّسة... في الغرفة أشخاص آخرون عديدون: ممرضتان صبيتان تنظفان الرضاعات، أخرى أكبر سناً تعاير الحليب المجفف، طبيب يتفحص بطاقات أمام مكتب، طبيب آخر يتحدث مع رجل قصير يجب أن يكون، كبيرد، والد إحدى بذور الآفات المتجمعة هنا. كلهم استداروا لينظروا إلى بيرد. تجاهلهم هو ليستعرض الأطفال الموجودين وراء حاجز زجاجي سميك، مثل أسد يبحث عن فريسته.

كان هناك عشرون سريراً صغيراً وخمس محضنات. الأطفال الموجودون في المحضنات بالكاد مرئيون لكن الآخرين مرئيون أكثر من اللزوم في النور الصاعق الذي آلم عيني بيرد المتعبتين. كانوا يعطون انطباعاً أنهم حيوانات صغيرة أسيرة. بعضهم مربوطة معاصمهم بحوافي أسرتهم (ليمنعوهم من تخديش أنفسهم؟) أو مضمدو العرقوب (لتغليف الجروح الصغيرة الناجمة عن نقل الدم؟) ويبدون أكثر من الآخرين أسرى صغاراً زهيدي الثمن. جميعهم كانوا صامتين. تساءل بيرد ما إذا كان الزجاج هو الذي يكتم صراخهم ـ لكن لا، جميع الأفواه الصغيرة كانت مغلقة.

كان بيرد ناسياً وجه طفله، لكنه كان يبحث بنظره عن الرأس الصغير المضمَّد الذي يجب أن يميزه عن الآخرين. لم يره. فجأة، ودون سبب ظاهر، راح الصغار يتحركون ويبكون. ذعر بيرد واستدار نحو الممرضة التي ترافقه ليسألها ما جرى. تحقق حينئذٍ أن لا أحد في الغرفة يبدو عليه الاهتمام بالأطفال. جميع الأنظار مثبتة عليه، في مظهر الذين يمتحنونه بصمت: «إذن، هل حزرت؟ انه في محضنة، إحزر أيّ واحد؟...».

طوى بيرد ركبتيه مطيعاً نظراتهم ورمى نظرة في أقرب محضنة. رأى فيها طفلاً بالكاد أكبر من صوص مريّش، ببشرة مبقعة في شكل غريب أو أنها مشققة. كان عارياً، يغلّف قضيبه الصغير جداً كيسٌ صغير من «الفينيل» وشاش على سرَّته. ومثل قزم في قصة خرافية مصوَّرة بدا أنه ينظر إلى بيرد بتبصُّر عريق، كأنه هو أيضاً يشارك في لعبة الأحاجي. ومع أنه واضح ليس ابنه، فإن هذا الطفل الصغير الصامت، بوجه شيخ سابق لأوانه، أوحى لبيرد تعاطفاً غريباً.

وقف بيرد واستدار نحو الممرضة بمظهر الواثق من نفسه كأنما ليقول لها ان اللعبة طالت كفاية. قالت:

ـ ألا ترى؟ إنه في المحضنة الأخيرة، قرب النافذة. سأدنيه.

ثانيةٌ واحدة وكان بيرد سيغضب ـ لكنه فهم أن هذه اللعبة هي من طقس المُسارَّة. ما أن تكلمت الممرضة حتى عاد الآخرون إلى أعمالهم. مسح بيرد جبهته المتصببة عرقاً، شعر بالترنّح وأغمض عينيه، غير قادر على الاحتجاج.

حين فتح عينيه كانت الممرضة عبرت من الجهة الأخرى للحاجز الزجاجي ودفعت محضنة نحوه. حاول أن يتمالك نفسه، ضغط قبضتي يديه ونظر إلى الطفل. رأس هذا الطفل ليس محاطاً بضمادات. الفرق بينه وبين الأطفال الآخرين أنه كان أحمر مثل قريدس مطبوخ ووجهه لمَّاع في شكل غير عادي. كانت عيناه مغمضتين ويبدو أنه يقاسي ضيقاً كبيراً عائداً بالطبع إلى الزائدة الفطرية التي رآها بيرد في الجهة الخلفية لجمجمته. لم يكن للغثيان الذي اجتاح فجأة بيرد أية علاقة بترنّحه. هزَّه في عمق أعماقه. أشار برأسه للممرضة التي كانت تراقبه من وراء الزجاج كأنه يقول لها رأى كفاية.

هل سيكبر الطفل مع هذه الزائدة الفطرية؟ الواضح أنه لم يكن على حافة الموت، وهذه الفكرة عذَّبت بيرد. شيء أكيد أن يلوذ بكآبة واضحة. كان الطفل بدأ يعيش بضراوة، مجرجراً قنبلة تشوُّهه. هل سيعيش وجود نبات؟

ذهبت الممرضة تعيد المحضنة إلى مكانها قرب النافذة، واستأنف الأطفال الآخرون الصراخ. تكوّم بيرد على نفسه وأخفض رأسه. تمنى أن يأخذ مكاناً في واحد من الأسرَّة الصغيرة، أو الأفضل في محضنة، ليدع نفسه يذهب هو أيضاً إلى حياة نباتية مزدوجة.

قالت الممرضة وهي تقترب منه:

- عليك أن تملأ أوراق الاستشفاء. نطلب منك أن تودع كفالة بثلاثين ألف ين.

أذعن بيرد للأمر.

- يأكل الطفل طبيعياً ويتحرك طبيعياً.

كان بيرد سيسأل لماذا بحق الشيطان يطعمونه، لكنه تمالك نفسه. وقزّزته عادة التذمر هذه.

- إذا أمكنك أن تنتظر لحظة اذهبُ واحضر طبيب الطفل.

بقي بيرد وحده جاهلاً كل ما يجري. كانت الممرضات حاملات الحفاظات وأطباق الرضاعات يحففن به وهنَّ يعبرن من قربه ولكن من غير أن ينتبهن إليه، وكان هو الذي يعتذر. سمع الرجل القصير يقول بعدائية للطبيب:

- كيف يمكنك التأكد من أنه بلا كبد؟ وكيف يمكن أن يكون هذا ممكناً؟ شرحوا لي عشر مرات لكني لم أفهم شيئاً...

لجأ بيرد إلى زاوية لئلا يزعج الممرضات المنهمكات. نظر إلى يديه الدبقتين، اللامعتين كقفازين رطبين من الجلد، وفكّر في يدي طفله اللتين تبدوان كبيرتين كيديه وبأظافر طويله. ثم دسّهما في جيبه...

استمرَّ الرجل القصير يجادل الطبيب بعناد. كان يرتدي بنطالاً داكناً وقميصاً رياضية مفتوحة الياقة بكمين مطويتين، واسعة جداً على جسمه الخمسيني الضامر. ذراعاه ورقبته داكنة كأنها من جلد وناتئة العروق. إنه

عامل يدويّ بالتأكيد. كان الطبيب يتخذ وضع شخصية رسمية واثقة من نفسها، وتبدو على الرجل القصير إرادة إعلان عجز الطبيب، إلا أنه بين وقت وآخر كان يلقي على الممرضات أو على بيرد نظرة فيها نوع من الهزيمة، كأنه يشكُّ في أن تكون له الكلمة الأخيرة.

قال الطبيب:

ـ لا نعرف كيف يمكن حدوث ذلك، لكن الحقيقة هي أن طفلك بلا كبد. رأيتَ برازه: إنه أبيض، أبيض تماماً...

أجابه الرجل القصير:

ـ رأيتُ صيصاناً أيضاً ذَرْقها أبيض. هذا لا يمنع أن يكون لها كبد!

ـ أعرف، أعرف... لكن الأمر لا يتعلق بصوص؛ إنه طفل من نتحدث عنه!

ـ طيّب، الأطفال الذين بلا كبد يكون برازهم أبيض، اتفقنا... ولكن هل يعني هذا أن الأطفال الذين برازهم أبيض هم بالضرورة بلا كبد؟

قال الطبيب بصوت مرهق:

ـ لقد فسَّرت لك عشر مرات!

ـ أريدك أن تفسره لي بعد مرة واحدة يا دكتور. إنه أمر فظيع، لا؟

استجاب الطبيب أخيراً لإصرار الرجل القصير. أجلسه قرب مكتبه، أخذ بطاقة وانطلق في شرح طويل لم يستطع بيرد أن يسمعه. إذ أن طبيباً آخر، في عمره تقريباً، دخل مستعجلاً إلى الغرفة وسأل بصوت عالٍ:

ـ والد الطفل الذي له فتق دماغي هل هو هنا؟

قال بيرد متقدماً خطوة نحوه: نعم، أنا.

نظر إليه الطبيب نظرة لا تحمل أي تعبير. كان يشبه سلحفاة.

ـ هو طفلك الأول؟ لا شك أن هذا صدمك...

- نعم . . .

- حتى الآن لا شيء مهماً أقوله لك . بعد أربعة أو خمسة أيام سيفحصه معاون المدير من جديد : إنه اختصاصي في جراحة الدماغ . طبعاً يجب أولاً أن يصبح الطفل قوياً قبل العملية ، وإلا سيكون جهداً ضائعاً .

- تقصد أنكم ستجرون له عملية؟

- إذا كان سيتحملها نعم .

- وبعدها؟ يمكن أن ينمو طبيعياً؟ في العيادة حيث وُلد قالوا لي حتى لو أجريت له عملية لن يكون له سوى وجود نباتيّ . . .

- لن أذهب إلى هذا الحد .

صمت الطبيب . نظر إليه بيرد منتظراً النتيجة . وفجأة اجتاحته رغبة مخزية ، بدأت بالظهور في مكتب الاستقبال حين قالوا له ان الطفل لا يزال حياً ، وهي الآن تضغط على عقله . كيف يمكننا أن نمضي بقية حياتنا ، أنا وامرأتي ، مع طفل غير طبيعي لاصق بنا؟ يجب أن أتوصل إلى التخلص من هذا المسخ ، وإلا كيف يمكنني الذهاب إلى أفريقيا؟ . . . وفي الوقت نفسه احمرَّ وعاد يتصبب عرقاً ، خجلاً من أنانيته - غير أن الخجل كان أضعف من رغبته . آه لو أستطيع فقط أن أتحرر من هذه القنبلة . . . مع ذلك لم يكن يستطيع أن يقول أفكاره للطبيب .

- ألا تتمنى إجراء عملية للطفل؟ لكن ذلك قد يشفيه ، على الأقل جزئياً . . .

ارتجف بيرد كأن الطبيب لمس جزءاً معيباً في جسده . وأجاب بصوت شبه مبهم :

- إن لم يكن هناك أي حظ في أن يصبح طبيعياً ، حتى بعد العملية . . .

شعر ، وهو يتكلم ، أنه كان حقيراً . قال له الطبيب بجفاف ، وفي عينيه بريق اشمئزاز :

ـ أظنك تعرف أنَّ من السهل عليَّ وضع حد لحياته .

قال بيرد : «طبعاً» ، كأن هذه الفكرة أيضاً لم تمسَّه . غير أنه فهم أن الطبيب يرى بوضوح ما في قلبه ، وشعر بالمهانة مضاعفاً . لكن هذا أضاف بنبرة شبه محرِّضة :

ـ سنستمر في إطعامه . إن لم يحتمل الحليب سنعطيه ماء محلًى . سنرى كيف يصبح في غضون أيام ، لكن إذا لم يوهن يجب إجراء العملية .

قال بيرد مرفقاً كلامه بابتسامة ملتبسة : أشكرك .

ـ أرجوك . . . عدْ بعد أربعة أو خمسة أيام . في الوضع الحالي يجب عدم انتظار تبدُّل ملموس ولا شيء يساعد على دفع الأمور .

احنى بيرد رأسه قليلاً متحاشياً نظر الطبيب ، واتجه نحو الباب . قالت له الممرضة وهو يخرج :

ـ لا تنسَ أن تملأ أوراق الاستشفاء في أسرع وقت ممكن .

ابتعد بسرعة كأنه يغادر مكان جريمة . باغتته حرارة الممشى المفاجئة وانتبه عندها إلى أن الغرفة التي خرج منها كانت مكيفة . مسح خفية دموع الخجل التي كانت تسيل على خديه . ورأى ، وهو يعبر أمام باب مفتوح لغرفة مشتركة ، مرضى نائمين أو جالسين ينظرون إليه بوجوه مغلقة .

حين بلغ قسم الممشى المخصص للغرف الفردية كانت عيناه جفَّتا ، لكن إحساس الخجل استمرَّ يلازمه كسرطان . كانت إحدى غرف المرضى مفتوحة ، ورأى بيرد في الداخل فتاة صبية عارية تماماً واقفة قرب السرير ، تضغط بيدها اليسرى أحد ثدييها . حين رأت بيرد أفردت ساقيها ولمست شيئها ناظرة إليه بإثارة .

تابع بيرد طريقه بخطى من يتماثل للشفاء .

فيما هو يقترب من المخرج ، لحق به الرجل القصير صاحب القميص الرياضية ، وقال له وهو يمشي إلى جانبه :

- يجب ألا تدعهم على الأخص يفعلون ذلك. معهم يجب العراك دائماً، خصوصاً الأطباء. أنا قلت لهم رأيي بصراحة، لا شك أنك سمعتني...

استمع إليه بيرد دون أن يقول شيئاً.

- ابني بلا كبد كما يبدو.. لكن إن لم أواجههم سيقطّعونه حياً!

إذا شئت أن تسير الأمور بانتظام في مستشفى كبير يجب أن تعرف كيف تدافع عن نفسك. لا ينفع في شيء أن تكون لطيفاً، أو محبوبا، وأن تقول نعم لكل قداديسهم، صدّقني! قبل أيام قلت لهم صراحة: إذا لم يكن للطفل كبد فما عليكم سوى أن تضعوا له واحداً. إنهم يصنعون شروجاً اصطناعية، يجب أن تقدروا إذن على صنع أكباد اصطناعية، لن يكون هذا أصعب بكثير!

كانا بلغا بوابة المستشفى، فسأل بيرد بتهذيب:

- هل سيشفى ابنك؟

- يشفى؟ تصوَّر: ليس له كبد! لا، لكني مستعد لمحاربة الألفي موظف في هذا المستشفى المقدَّس!

عرض الرجل القصير على بيرد أن يوصله بشاحنته الصغيرة، لكنه فضَّل أن يمشي إلى موقف الأوتوبيس. فكَّر في الثلاثين ألف ين التي يجب أن يدفعها للمستشفى. كان يعرف من أين يجب أن يأتي بها، وهذا التفكير أحلَّ غضباً يائساً محل شعوره بالخجل. هذاالمال، كان يدّخره مفكراً في رحلته إلى أفريقيا. لم يكن كافياً، يعرف، لكن هذا المبلغ كان يجسّد أمله - وها عليه الآن أن يتنازل عنه. لن يبقى له غير دليلي طرق كي يحلم بأفريقيا... تذمَّر بصوت منخفض وهو يأخذ مكاناً في نهاية صف منتظري الباص: «أفريقيا.. أية مزحة!» فاستدار العجوز الذي أمامه منذهلاً.

كانت الحرارة خانقة. كدَّه العرق من جديد وخيِّل إليه أن رائحة مقززة تنبعث من جسده. لم يكن الباص يأتي. وفجأة استيقظت فيه نزوة جنسية

كأنها وُلدت من الخجل والغضب اللذين يسكنانه . أغمض عينيه ودسَّ يداً في جيب بنطاله ليضغط على شيئه المنتصب . واجتاحته فجأة رغبة فعل الجنس بوحشية .

غادر صف الانتظار وبحث بعينيه عن تاكسي في النور الصاعق . سيعود إلى إيميكو حيث على الأقل لا يدخل نور النهار . فكَّر غاضباً : إذا لم ترغب فيَّ سأرهقها بالضرب وأضاجعها بالقوة . . .

- ٧ -

تنهدت إيميكو:

- في كل مرة تحاول النوم معي تكون حتماً في حالة مضحكة... لم أرك مطلقاً قليل الاغراء مثل الآن!

كان بيرد صامتاً بعناد.

- لكن لا يهمّ، إذا كنت ترغب في ذلك. منذ انتحار زوجي لم أعد أماحك في الأمور الاخلاقية. أياً تكن نية فعلك معي، فأنا متأكدة أن هناك شيئاً ما نقياً في ما سنفعله.

نقي: حقيقي، صحيح، واقعي، طبيعي، صادق... عدَّد ناظر الدروس الإنكليزية بصوت منخفض جداً هذه المرادفات، قائلاً لنفسه أن أي نعت من هذه النعوت لا يمكن أن ينطبق عليه في وضعه هذا.

قالت إيميكو:

- استلق في الفراش. سأذهب وأغتسل.

نزع بيرد على مهل ثيابه المشبعة بالعرق ونام على الغطاء البالي. وضع يديه تحت رأسه ونظر في بطنه الذي كان يميل إلى التضخم، وفي شيئه المائل إلى البياض وشبه المنتصب. وكانت إيميكو في الحمام الذي تركت بابه

مفتوحاً تستسلم للاغتسال الحميم، مع حركات عزاها بيرد للاختبار الطويل. نادته:

- بيرد... إنها الفترة الخطرة بالنسبة إلي. هل معك ما يلزم؟ لا أرغب أن أصبح حاملاً.

حامل... أيقظت فيه الكلمة ذكريات حارقة.

قالت وهي عائدة إلى الغرفة:

- يجب أن تكون متيقظاً.

تابعت تنشيف نفسها بمنشفة الحمام. أمسك بيرد بإحدى يديه شيئه متضايقاً وقال:

- لا أعرف ما بي. لديَّ انطباع أني لن أقدر على...

نظرت إليه إيميكو بابتسامة صغيرة ساخرة وأصبح قرمزياً.

قالت وهي تدع المنشفة تسقط عن جسدها:

- هذه فكرة ستحسّنك.

نامت فوقه وشعر بحلمتيها. دفعها عنه بحركة صبيانية وجعلته ملامسة الجسد الناعم يرتعش.

قال:

- هذا بسبب ما قلته لي. أحدث لي صدمة. «حامل» هي الكلمة الوحيدة التي لا يمكنني تحملها في هذه اللحظة...

- بيرد، ما بك؟

- فكرت في كلمة «حامل» و... هذا أثبط كل عزيمتي.

جلست إيميكو إلى جانبه. تراجع بيرد ليفسح لها مكاناً. لمست برقة يده التي تخفي شيئه الرخو؟ وقالت بهدوء:

- سيصطلح الأمر. دعني أفعل. تعلمت الكثير من بعد ليلة الفناء تلك . . .

لم يكن بيرد يعرف كيف يشرح ما يقاسيه، ولكن كان عليه أن يفعل، عليه أن يتخطى الجدار الذي يشعر بأنه سجين وراءه قال مديراً نظره عن ثديي إيميكو:

- إنها ليست مسألة تقنية، الحقيقة أني خائف.

- خائف؟

كان يبدو عليها ملامح الاعتقاد بأنه يمزح.

- نعم . . . خائف من هذه الخلوات المظلمة حيث تكوَّن الطفل المسخ. عندما رأيته برأسه المحاط بالضمادات فكرت في أبولينير. قد يبدو هذا مضحكاً، لكني قلت لنفسي أن رأسه جُرح، كأبولينير، في أرض معركة. هذه المعركة خاضها وحده في مكان مظلم لم أره على الإطلاق. . . وخائف أن أرسل شيئي إلى أرض هذه المعركة. . . .

- ولكن ألا يتعلق هذا بامرأتك وبك وحدكما؟ أقصد: ألا يجب أن تشعر بهذا الخوف فقط حين تلتقيها، عندما تتعافى؟

- إذا أعدنا الكرَّة، هي وأنا، فلن أكون خائفاً فقط بل سيكون لديَّ انطباع بأني أغتصب الطفل.

- مسكين بيرد. إذا تابعت الاستماع إليك ستختلق مئة عقدة لتبرر عجزك!

نامت على بطنها بينه وبين الحائط. قلَّص بيرد نفسه أكثر منتظراً تنفّس إيميكو قرب أذنه. إذا تملكتها الرغبة الآن، سيكون مجبراً على فعل شيء ما لها - لكنه كان يعرف أنه لن يقدر في وضعه المضحك على ولوج الطيَّات الرطبة لجسدها. فكر أن يشفي غلتها بأصابعه، بشفتيه أو لسانه، ولكن ألم تقل له الليلة الماضية أن ذلك يقرزها كالاستمناء؟ لو عرض عليها الأمر من جديد

ورفضت من جديد بالكلمات نفسها لن يبقى سوى احتقار فظ يكنه واحدهما للآخر. هناك طريقة واحدة، لو فقط إيميكو سادية قليلاً . . . كان مستعداً أن يقدم أي شيء يوفر عليه ولوجها. كان مهيئاً للضرب، لشرب بولها . . . لأول مرة في حياته يكتشف بيرد مازوشية في نفسه، وبعد كل أنواع العيوب التي اختبرها بدا له أن هناك جاذبية ما في هذه المصيبة الإضافية. فكّر: لهذا بلا شك يصبح المرء فعلاً مازوشياً. بعد بضع سنوات، عندما يصبح مازوشياً في الأربعين، ربما سيتذكر هذا النهار يوماً لاهتدائه، يوماً لمُمارسته التعبدية . . .

ـ بيرد . . .

أجاب «نعم» بصوت مستسلم.

لقد بدأت المعركة أخيراً . . .

ـ يجب أن نتغلب على هذه المحظورات التي خلقتها، وإلا ستتخرب حياتك الجنسية بكاملها . . .

ـ أعرف، كنت أفكر للحظتي بالمازوشية.

كان يأمل في شكل مبهم أن تُمسك إيميكو بيد المساعدة التي مدّها لها وتجيبه أنها هي أيضاً غالباً ما فكرت في السادية. ولكن بعد صمت قصير محيّر قالت:

إذا كنت تريد السيطرة على خوفك يجب أن تحدد موضوعه بالضبط. . . أهو المهبل والرحم فقط؟ أم أنت خائف من كل ما هو أنثوي؟ مني كلي بصفتي امرأة، مثلاً؟

فكر بيرد لحظة:

ـ أظن من المهبل والرحم. بما أن لا علاقة لك بمصيبتي، أتصور أن عجزي عن أخذك يعود فقط إلى أن لك مهبلاً ورحماً . . .

ـ في هذه الحال لماذا لا تجرب أن تنسيهما. ما الذي يخيفك تماماً؟

ـ لدي انطباع بوجود ما تسميه عالماً آخر هناك، عالماً مظلماً، لا نهائياً،

غير بشري . . . وأخاف إن دخلته أن أصبح أنا نفسي سجين بُعدٍ آخر بحيث لا يمكنني العودة. تعرفين ما يقال عن خوف الفضاء الذي يقاسيه الملاحون الكونيون . . .

كان يشعر بيرد بأن المنطق القاسي يقود إلى شيء ما سيزيد أيضاً من خزيه، وكان يختبىء وراء شاشة كلمات ليتحاشى ذلك . لكن إيميكو كانت متشبثة برأيها :

- أتعتقد أنك ستكون أقل خوفاً من جسد المرأة لو كان بلا مهبل ولا رحم؟

تردد بيرد ثم قال بخجل :
- ذاك ليس مهماً بهذا القدر، إنما هناك أيضاً الثديان . . .

- تقصد أنك لن تخاف إن أخذتني من الخلف؟

- ولكن . . .

- بيرد، لطالما فكرت أنك الرجل الذي يرغب الصبيان في الهيام به . ألم تنم أبداً مع صبي؟

فهم إلى أين تريد أن تصل . فجأة، وبأقوى من دهشته واشمئزازه من نفسه، قاسى من نزوة عنيفة . غير أنه أعلن تأكيداً نهائياً سائلاً بصوت أبح :

- ألن تشعري بعدها بأنك مهانة؟

- لم أشعر بالمهانة في تلك الليلة التي تعرفها، في ذاك الفناء وكنت مغطاة بالدم والوحل والنشارة . . .

- ولكن أية لذة ستحصلين عليها؟

- حالياً، أفكر فقط فيك يا بيرد .

وأضافت بلطف كبير كأنها تبعد عنه كل انزعاج :

- قلت لك قبلاً، أي شيء نفعله أنا وأنت متأكدة من وجود شيء نقيّ فيه .

نظر إليها بصمت وبلا حراك، تنهض وتأخذ أصيصاً من الأصص الصغيرة التي لا تحصى الموجودة على منضدة الزينة وتعود إلى الحمام. جلس على السرير منقبض الحلق، التقط قنينة الويسكي وشرب بشراهةٍ النقاط الأخيرة. استعاد أفكاره في موقف الأوتوبيس حين خرج من المستشفى. حينذاك شعر فجأة برغبة فعل جنسي عنيف، شائن ـ وها رغبته أصبحت ممكنة.

لم يبق ويسكي. ترك بيرد نفسه يعود إلى الوراء. حالياً شيئه صلب ومضطرم. تحاشت إيميكو النظر إلى بيرد وهي تعود إلى الغرفة. كان وجهها قاسياً ومثاراً. هل كانت هي أيضاً فريسة رغبة غير طبيعية؟ لم يستطع بيرد أن يمنع نفسه من الابتسام. فكّر: تخطيت أولاً الحائط الأعلى. الآن يجب أن أزيل أشواك الخجل... قالت له إيميكو مسيئة الظن بمشاعره:

ـ لا تقلق بيرد. ليس الأمر بهذه الفظاعة...

... بدأ بعدم التفكير إلا فيها. ولكن بعد دقائق من المحاولات المضحكة التي لم توصل إلى شيء، أحس نوعاً من الغيظ يتصاعد فيه وكفَّ عن الاهتمام بإيميكو. عندما نجح في ولوجها نسيها تماماً. عبرت ذهنه أفكار شاردة كشظايا قذيفة ـ ممهّدة للذة. كرْهُ اثداء رخوة، رغبة في لذة أنانية، متوحدة، ويجب على الأخص ألا ترى عيون النساء وجهي... مراعاة لذة المرأة، التفكير بألا تحبل، بالمسؤوليات التي يورطها الحمل بعد ذلك، كل هذا لوضع السلاسل حول العنق... ارتفعت صرخة حرب صامتة في رأسه. أنام مع امرأة بالوضع الأكثر خزياً! وقادر على الأحقر، على الأكثر فظاظة... شعر أنه يهتز بذروة لها توتر يدور لها رأسه. كل حركة من ارتعاشاتها تقتلع صرخة صغيرة في إيميكو. كان يسمعها شبه غائب. وفجأة، كأن حقده لم يعد يحتمل، عضَّ عنق إيميكو. صرخت بصوت عال. ورأى حين فتح عينيه نقطة دم تسيل على رقبتها نحو خدها.

فقط بعد الذروة انتبه إلى ما فعل، وتجمد. بعد هذه المزاوجة اللابشرية، هل سيجرؤ بعد أحدهما النظر إلى الآخر؟ استلقى على بطنه، لاهثاً وبلا حراك، راغباً أن يموت ـ لكن إيميكو قالت له بصوت عذب:

ـ تعال إلى الحمام، سأغسلك . . .

أحس أنه يتحرَّر من ثقل ضخم .

اعتنت به إيميكو بمهارة كأنه عليل . لقد اختبرت كثيراً بعد تلك الليلة الشتائية في الفناء . . . وليشكرها على اعتنائها نظَّف عضة عنقها بلا مهارة كولد خجول .

أبدلت إيميكو الشرشف واستلقيا على السرير. كان تنفسهما هادئاً الآن . أقلق صمتُ إيميكو بيرد، لكن ملامح وجهها الساكنة أعادت إليه الاطمئنان . هو نفسه كان يشعر بسلام عميق، ولم يكن يرغب في طرح الأسئلة . ما كان يحسه أشبه بالامتنان . غير أن خجله لم يفارقه . كان رمز هذا الخجل لا يزال قابعاً في غرفة بعيدة في المستشفى، لكن حاجزاً فيه قد سقط وكان يشعر بنوعٍ من الصفاء .

قال :

ـ لو نحاول بعد . . . طبيعياً؟ أظن أني لم أعد خائفاً .

ـ لم لا تأخذ منوماً وتنام بضع ساعات؟ إن لم تكن خائفاً بالفعل حين تستيقظ. . .

وافق بيرد . كان يشعر بأنه لا يحتاج حتى لمنوم كي ينام .

قال برقة :

ـ أنت لطيفة .

ـ طبعاً . أراهن أن لا أحد كان لطيفاً معك مذ بدأ لك هذا . في فترات كهذه يجب أن يكون هناك دائماً شخص ما كي يشدّد عزيمتك يا بيرد، وإلا ستجد نفسك أعزل تماماً حيث يتطلب الأمر استجماع الشجاعة . . .

ـ الشجاعة؟ متى كنت في حاجة إلى شجاعة؟

ـ سترى، بيرد . ستحتاج كثيراً وغالب الأحيان منذ الآن . . .

نظر إليها بيرد كأنه يرى مقاتلاً قديماً حنكته غزوات الحياة اليومية. لم تكن إيميكو أكثر منه اختباراً في الأمور الجنسية فحسب، بل تشمل خبرتها كل أمور الحياة. أقر بيرد ضمناً بأنه واقع تحت تأثيرها؛ إنما بفضل مساعدتها ارتفع فوق واحد من مخاوفه. وتبين له أنه لم يتحدث مطلقاً مع أية امرأة في أمور الجنس بهذه الصراحة. بعد العلاقات الجنسية، حتى مع امرأته، لم يكن يشعر مطلقاً بغير الاشمئزاز والرثاء لحاله. قال ذلك لايميكو دون أن يذكر امرأته.

قالت:

ـ اشمئزاز؟ رثاء؟ ذلك إنك لم تبلغ بعد النضج الجنسي يا بيرد، ولا النساء اللواتي عاشرتهن. أراهن أنك لم تكن مطلقاً سعيداً تماماً في هذا المجال، لا؟

حسدها بيرد، حتى انه شعر بالغيرة قليلاً. كان متأكداً أن الرجلين اللذين ناديا إيميكو الليلة السابقة، الشاب والأكبر سناً معاً، مفعمان هما بعلاقتهما بها. وبما أنه لم يقل شيئاً أضافت:

ـ لا شيء أكثر حماقة وغباء يا بيرد من النوم مع أحد ثم التأسف على ذلك. يبقى الاشمئزاز أفضل.

ـ معك حق. ولكن عموماً الذين يحدث لهم ذلك لا يكون لهم شريك اختصاصي مثلك، وهذا قوَّض ثقتهم...

كان لديه انطباع خفيف بأنه يستلقي على وسادة محلل نفسي. حين انتهى من الإفصاح عما في قلبه أحس بالنوم يصل إليه. تساءل: كيف يمكن رجلاً شاباً متزوجاً من هذه المرأة الذهب أن ينتحر؟ هل كان بدافع الندم والحسرة لأن إيميكو اشركت معه رجلي الليلة البارحة؟ زوجها شنق نفسه في هذه الغرفة نفسها، وكان بيرد، بدعوة من إيميكو، هو الذي أنزله ومدَّده على أرض الغرفة، كجزار أنزل قطعة لحم معلقة في غرفة باردة. استعاد المشهد شبه نائم ـ ويد إيميكو التي تجفف بهدوء عرقه اللزج ذكرته بالطريقة التي لمست

بها الجثة. فكّر: أنا جثة. الصيف الآتي سيكون سهل الاحتمال: الجثة تكون باردة كشجرة في الشتاء... جرَّب أن يصارع النعاس الذي غلبه. لن أقتل نفسي، أنا!...

ونام.

اضطرب نومه: نوع من قِمْع سيدخله من الثقب الأكبر وعليه أن يخرج من الجهة الأخرى. كان جسده المنتفخ والرخو يعبر ببطء مساحة مظلمة لا تنتهي.

استدعي ليمثل أمام محكمة الظلمات، وكان يبحث عن طريقة يخفي فيها عن قُضاتها مسؤوليته عن موت الطفل. ومع يقينه أنه سيعجز عن خداع المحلفين، كان يحلم الآن باستدعاء التمييز. هم موظفو المستشفى فعلوا ذلك! لست أنا من يجب ان تعاقبوه...

استيقظ. كانت عضلاته كلها تؤلمه كأنه نائم في جحر حيوان أصغر منه أو كأن جسده مجصَّص بكامله. أين يمكن أن أكون؟ في لحظة فظيعة كهذه، متعاركاً ببطء مع طفل مسخ... أين أنا إذاً؟

كان هو نفسه عارياً وبلا دفاع، مثل طفل ـ والأسوأ أن جسداً آخر عارياً كان نائماً أيضاً إلى جانبه. زوجته؟ هل نام مع زوجته دون أن يخبرها ما جرى؟ لمس خائفاً رأس المرأة النائمة بيد وبالأخرى كتفها العارية. كان الجسد أكثر نضارة ونعومة من جسد امرأته. استدارت المرأة النائمة على مهل واستيقظ بيرد تماماً، تعرَّف على إيميكو واستعاد رغبته فيها، رغبة لم تكن تعاكسها الأنوثة. ضم إيميكو إليه كأنه يضغط على عدو، ناسياً عضلاته المؤلمة. استيقظت هي بدورها وأدارت رأسها نحوه. ابتسمت له ابتسامة شبه صبيانية وقبلته بشفتيها الحارتين والجافتين. ومن دون أن يغيرا وضعيهما اتحد جسداهما، ولفظت إيميكو اسمه وهي تتأوه:

ـ بيرد...

تمالك نفسه بعزم كي تبلغ اللذة، آملاً أن ينسيها انتصاره المؤسف في

الماضي، في تلك الليلة الشهيرة في الفناء.

استمرت إيميكو ترتعش لحظة طويلة بعد بلوغها الذروة، ثم ارتخى جسدها ببطء، بهدوء، ومع تنهيدة حيوان صغير مشبع عادت إلى النوم. ظل بيرد جامداً، محاولاً ألا يرهقها بثقل جسده. كان يتنشق رائحة إيميكو واستمر مثاراً بقوة لكنه لم يرد إيقاظها. لم تكن أنوثتها تهدد بيرد. لم يعد خائفاً. كان يرضى بها بلا تحفظ، كما هي.

حين أراد أن ينسحب منها، أحس بشيء إيميكو ينقبض بلا وعيها انقباضة خفيفة، كأنما لتعيده إليها. ابتسم بيرد، انفصل عنها ونام بدوره.

بعد قليل، عاد من جديد إلى ضفاف واقعه. استعاد حلم رُهاب الاحتجاز وراح يئن. حين فتح عينيه كانت إيميكو منحنية عليه، تنظر بقلق في دموعه الجارية على خديه.

- ٨ -

فيما هو يصعد درج العيادة المؤدي إلى غرفة زوجته، حاملاً حذاءه بيد وتحت ذراعه كيس ليمون هندي، التقى بيرد الطبيب الأعور الذي توقف وسأله:

- ما الأخبار؟

- لا يزال حياً.

- هل أجروا له العملية؟

أحس بيرد بالاحمرار وقال:

- لا. يخافون أن تسوء صحته ويموت قبل أن يستطيع تحمّل العملية.

- سيكون هذا على الأرجح أفضل للجميع...

وأضاف بسرعة دون أن ينظر إلى بيرد كأنه يخجل من رد فعله:

- لم نخبر زوجتك عن تشوّهه. هي تعتقد أنه مجرد نقص عضوي. هذه ليست كذبة تماماً، فلو بدأنا بالكذب لن ننتهي، إذا عرفت ما أقصد... مهما يكن، لا تتردد في الاتصال بي إن أستطيع أن أفعل شيئاً.

تبادلا تحية متصنعة وافترقا متحاشيين النظر واحدهما إلى الآخر.

«سيكون هذا على الأرجح أفضل للجميع»، قال الطبيب. إذا ساءت

صحة الطفل قبل التمكن من إجراء العملية سيعني هذا: لا قلق بعد ولا حاجة إلى توسيخ اليد بجريمة. كل ما عليك أن تفعل هو انتظار موته في مستشفى شهير. أنت، حاول ألا تفكر فيه... شعر بيرد بالخجل يجتاحه من جديد. مشى بخطوات صغيرة حذرة كالنساء الحبالى أو الناقهات اللواتي يلتقيهن في الممشى. كان لديه انطباع بأنه هو نفسه امرأة حبلى، تحمل في رحم دماغها جسداً يتحرك: خجله. تخيل أن النساء ينظرن إليه بنوع من الاحتقار، كأنهم يعرفن كل ما فعله منذ تلك الليلة. آه، إذا كان الطفل هو من تفكّر فيه، أعرفْ انه في مكان آمن، في مسلخ للمولودين الجدد، تسوء حاله ساعة بعد ساعة، وهذا هو على الأرجح أفضل للجميع...

شمَّ بيرد يديه خفية أمام باب غرفة زوجته. يجب ألا تشتمَّ فيه امرأته رائحة إيميكو - الأمور معقدة كفاية هكذا... رغب فجأة في الهرب، لكن الممشى كان مزدحماً بنساء يرتدين المباذل وينظرن إليه. استعاد دوره كزوج شاب مصعوق بالمصيبة ودقَّ بحياء على الباب.

حين دخل رأى حماته واقفة قرب النافذة وزوجته في سريرها تنظر إليه. بدتا كلتاهما مباغتتين برؤيته. ولاحظ بيرد أنهما في لحظات المباغتة والحزن تتشابهان في شكل غريب.

- لم أكن أريد أن أفاجئكما... طرقت على الباب...

- «أوه، بيرد!»، تأوهت امرأته وامتلأت عيناها بالدموع.

كانت بوجهها غير المتبرج وبشرتها الداكنة تشبه من جديد فتاة التنس التي كانتها منذ بضع سنوات حين تعرَّف إليها بيرد. أحس تحت نظراتها، وهو يضع كيس الليمون على المنضدة، أنه قابل بفظاعة للعطب، فقرفص كأنه يخبىء نفسه ووضع حذاءه على قدم السرير. لو يمكنه فقط أن يبقى هكذا، يتكلم دون أن يُرى... ولكن لا حيلة، نهض وأرغم نفسه على الابتسام.

قال بصوت مرح بان مزوَّراً:

- إذن؟ انتهى الوجع الآن؟

- ما زلت متوجعة قليلاً. انقباضات تشنجية. وضعيفة جداً. . .

- آسف.

- بيرد، ما به الطفل؟

- ما به؟ ألم يشرح لك الطبيب صاحب العين الزجاجية؟

رمى نظرة خفيَّة إلى حماته كملاكم في وضع سيء يطلب مساعدة من مدرّبه. فعلت له حماته إشارات لم يفهمها جيداً ولكن كأنها تأمره بالصمت.

تمتمت زوجته بصوت ضعيف حزين: لا أحد يريد أن يخبرني.

- فيه عضو لا يعمل كما يجب. لم يعطني الطبيب تفاصيل. الأرجح أنهم وضعوه تحت المراقبة. . . ثم، هذه المستشفيات بيروقراطية جداً.

انتبه بيرد وهو يتكلم كم كان صوته يأتي كاذباً. قالت امرأته:

- كل ما أعرفه، لا بدَّ أن الأمر يتعلّق بقلبه. لماذا يجب أن يكون لطفلي قلب غير طبيعي؟

جعله صوتها اليائس يرغب في الاختفاء، لكنه أرغم نفسه على التكلم بصوت مراهق منزعج:

- ما دام هناك اختصاصيون يهتمون به لماذا لا ندعهم يفعلون؟ لا ينفع على الاطلاق أن نخترع أفكاراً!

نظر إلى امرأته وقد أغمضت عينيها، وتساءل قلقاً إذا كانت ستسترجع هيئتها العادية. الآن جفناها ذابلان، أنفها منتفخ، وفمها كبير إلى حد الغرابة. وفيما هي تبدو على وشك النوم، انبثقت فجأة دموع من بين رموشها المقفلة وقالت دون أن تفتحهما:

- عندما ولد الطفل صرخت الممرضة «أوه!» وعرفت أن شيئاً غير طبيعي حدث. ثم غرق المدير في الضحك، أو بالأحرى ظننت أنه يضحك، ولم أفهم شيئاً. . . حين استعدت وعيي كانوا أخذوا الطفل.

هذا المدير القذر! انعصر حلق بيرد من الغضب. لا شك هذا الأبله معتاد على الضحك في كل مرة يطرأ شيء مفاجىء؟ لكن غضب بيرد تلاشى بالسرعة التي ظهر فيها. لم يكن لديه هو احترام لنفسه كي يهاجم واحداً آخر.

قال لامرأته كأنه يعتذر:

- جلبت لك ليموناً هندياً.

- ليمون هندي؟ ماذا أفعل به؟

كيف استطاع أن ينسى أنها تمقت الليمون الهندي؟ قال:

- تباً! أتساءل بماذا كنت أفكر...

- لا بي ولا بالطفل على الأرجح... بيرد، هل فكرّت مرة في شيء غير نفسك؟

هزّ نفسه بارهاق واستدار نحو حماته التي كانت لا تزال تفعل إشارات مبهمة.

الحقيقة أن إيميكو هي التي اشترت الليمون الهندي. يمكن القول من الآن فصاعداً أن إيميكو ستختلط في كل تفاصيل حياته.

اقترحت حماته وهي تفعل له إشارة أيضاً:

- لماذا لا تعطي الليمون للممرضات؟

وفهم هذه المرة أنها كانت تحاول القول أنها تريد التحدث إليه خارج غرفة ابنتها. قال:

- فكرة جيدة. سأعود حالاً. أين، تحت؟

أجابت حماته مع نظرة ملحاحة:

- إلى جانب غرفة الاستقبال.

حمل بيرد كيس الليمون. كان يبدو له كل ذلك مثل هرجة، تمثيلية

رديئة . وحده الطفل كان حقيقياً بالزائدة الفطرية المخيفة في رأسه ـ الطفل الذي كانت تسوء حالته لأنهم يطعمونه الماء المحلّى عوض الحليب . لماذا الماء المحلّى؟ لماذا لا يكتفون بعدم إعطائه أي شيء؟ أليس هذا أيضاً شيئاً جديراً بالاحتقار؟

قدَّم بيرد الليمون للممرضات اللواتي وجدهن في المكتب وأراد أن يعرّف باسمه، لكنه عجز عن لفظ أية كلمة واقتصر على الانحناء . سمع الممرضات يضحكن وهو يبتعد . المهزلة مستمرة . لماذا كل هذا غير حقيقي على الإطلاق؟ وصعد الدرج أربع أربع .

كانت حماته تنتظره أمام باب أحد الأقسام وفي يدها مغلاة . كانت تقف منتصبة تماماً، ولكن ليس بسبب الانشغال بكرامتها . قدَّر بيرد أن الإنهاك واليأس وحدهما جعلاها متوترة هكذا . تبادلا بعض الكلمات دون أن تفارق عيونهما باب غرفة امرأة بيرد . وحين أكد بيرد أن الطفل لم يمت، قالت له حماته بنبرة معاتبة :

ـ ألا تستطيع أن تجعلهم يعملون اللازم حالاً؟ ستجن تلك الطفلة إذا رأت ابنها .

لم يجب بيرد.

تأوهت حماته : لو فقط عندنا طبيب في العائلة .

فكّر بيرد : نحن لسنا سوى كومة من الطفيليات، زمرة من الأنانيين المشهورين . . .

قال :

ـ قلّلوا حصته من الحليب . يعطونه مكانها ماء محلّى . قال لي الطبيب سيرون النتيجة خلال أيام .

بدت حماته تتكوم على نفسها . أخفضت يدها كأن المغلاة ثقيلة جداً عليها، وقالت بصوت كئيب وهي تهزّ رأسها باعياء :

ـ أعرف. . . نعم، أعرف. عندما ينتهي كل هذا سنحفظ السر بيننا، أليس كذلك؟

وعدها بيرد من غير أن يقول لها أنه أخبر عمَّه.

ـ وإلا فابنتي الصغيرة لن ترغب في طفل آخر، بيرد. . .

رجع بيرد وحده إلى غرفة امرأته متقززاً أكثر من أي وقت آخر، متسائلاً كيف سيكون ممكناً ألا تكشف امرأته لعبتهم.

جلس على حافة السرير. قالت له زوجته وهي تلمس خده بحركة مودودة:

ـ تبدو متعباً.

ـ أنا فعلاً متعب.

ـ تشبه فأراً يرغب في الاختباء في جحره.

ـ فأر؟

ـ أمي خائفة أن تعود إلى الشراب، كما فعلت قبلاً، بلا توقّف.

تذكّر بيرد ترنحه والأسابيع التي أمضاها غارقاً في الويسكي. أضافت زوجته:

ـ إذا عدت إلى الشراب لن تكون نافعاً لشيء عندما سيكون طفلك في أمسّ الحاجة إليك. فكّر في هذا، بيرد. . .

ـ لن أشرب أبداً كتلك المرة.

كان صادقاً. ألم ينجح قبلاً في مقاومة إغراء الشراب؟ ولكن أكان استطاع دون مساعدة إيميكو؟ ألم يكن عاد إلى الشراب لولاها؟ ولكن بما أنه لا يستطيع التحدث عن إيميكو لزوجته، كيف يقنعها بقدرته على المقاومة؟

قالت:

ـ أريد من قلبي أن تكون مرتاحاً يا بيرد. أخاف دائماً حين يطرأ شيء

خطير أن تعود إلى الشراب أو أن تهرب في أحلامك . .

ـ مضى وقت على زواجنا ولا تزالين تشكّين في زوجك؟

جهد كي يتكلم بلهجة ممازحة، لكن امرأته لم تنخدع بكلامه .

ـ هل تعرف أنك تحلم غالباً بأفريقيا بصوت عالٍ؟ لم أحدثك مطلقاً عن هذا، لكني أعرف أنك لا ترغب فعلاً في عيش حياة هادئة مع امرأتك وطفلك . أليس هذا صحيحاً يا بيرد؟

بقي لحظة صامتاً ثم سأل بنبرة دفاعية :

ـ كيف تعرفين أني أحلم بأفريقيا؟

ـ تقول أشياء باللغة السواحلية .

ـ ماذا أقول؟

ـ لا أذكر، بيرد . عموماً أكون نصف نائمة . ثم اني لا أعرف اللغة السواحلية .

ـ إذاً كيف تعرفين أنها هي؟

ـ تقول كلمات بربرية لا تنتمي إلى أية لغة حضارية . بيرد، البارحة وقبلها خفت عندما أخبرتني أمي أنك تنام في المستشفى الآخر . فكّرت أنك ربما تكون تسكر، أو تنجرُّ لا أعرف إلى أين . . .

ـ كنت أكثر تشوشاً من أن أفعل هذا .

ـ مع ذلك، أنت تحمرّ . . .

قال بخشونة :

ـ لأنك تغيظينني . لماذا كنت سأنجرُّ إلى أي مكان بينما كان الطفل يولد؟

ـ عندما أخبرتك إني حامل كدت تجنّ . هل كنت ترغب فعلاً في طفل يا بيرد؟

تهرب بيرد من الإجابة:

ـ سنتحدث في كل ذلك حين يشفى الطفل. وهذا كل ما يهمنا الآن.

ـ نعم، هذا كل ما يهمنا فعلاً. وشفاؤه يتعلق بالمستشفى الذي اخترته وبجهودك. أنا لا أستطيع الوقوف ولم يخبروني حتى ما به تماماً. لا يمكنني الإعتماد إلا عليك يا بيرد.

ـ عظيم إذاً. ثقي بي.

ـ تساءلت عن ذلك وقلت لنفسي اني لا أعرفك في العمق سوى قليل جداً. هل ستكون قادراً على التضحية من أجل الطفل؟ هل أنت شجاع كفاية لتتحمل مسؤولياتك؟

غالباً ما فكّر بيرد أنه لو اشترك في الحرب لكان قادراً على الأقل أن يقول إذا هو شجاع حقاً. كان يطرح على نفسه هذا السؤال قبل بعض المشاجرات، وقبل امتحاناته، وحتى قبل زواجه، وكان يأسف دائماً لعدم قدرته على الإجابة بثقة. ولذلك أيضاً تقريباً تمنى أن يغامر في أفريقيا ويخوض في شكل ما حرباً شخصية. أما الآن، والحرب وأفريقيا جانباً، فهناك أمر متأكد منه تقريباً: إنه ليس الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه ـ هو ليس إلا جباناً.

انقبضت يد امرأة بيرد التي كانت وضعتها على ساقه، ساخطة من صمته، وقالت:

ـ أتساءل ما إذا كنت من نوع الرجال الذين يهجرون من يحتاج إليهم، كما هجرت ذاك الصديق الذي تعرفه جيداً، كيكوهيكو.

كيكوهيكو! صديق صباه، أيام المشاكسات في مدينة في المقاطعة. كان كيكوهيكو أصغر منه ويتبعه أينما ذهب ككلب مخلص... ذات يوم، حصلت معهما مغامرة طريفة في قرية في الجوار. وافقا على البحث عن مجنون هرب من مستشفى للأمراض العقلية وأمضيا السهرة يجوبان المدينة الصغيرة على الدراجة. ولأن كيكوهيكو تعب بسرعة من المحاولة، راح يلعب دور المهرّج

وأضاع في الأخير الدراجة التي استعارها من المستشفى، أما بيرد فمضى في اللعبة وتابع بحثه طوال الليل. كانوا أخبروه أن المجنون يرتعب من الكلاب التي يرى فيها شياطين مقنَّعة، وقرروا إن لم يجدوه حتى الفجر ارسال كلاب ألمانية من المستشفى تقتفي أثره. هذا ما جعل بيرد يصمم على متابعة بحثه. حين استعجل كيكوهيكو التخلي عن البحث والعودة إليهم، شتمه بيرد بغضب وأخبره عما كان يعرفه عن مغامرة كيكوهيكو مع لوطي أميركي، ثم هجر صديقه المسكين - وانتهى بأن وجد المجنون مشنوقاً على تلة.

هذه المغامرة سجلت نهاية مرحلة في حياته. في صباح اليوم التالي، وهو جالس قرب سائق الشاحنة الصغيرة التي كانت تنقل جثة المشنوق، حدس بيرد بأنه سيودع قريباً حياة الصبي الشقي. في الربيع التالي التحق بجامعة طوكيو. كانت حرب كوريا وأرعبته بعض الإشاعات عن تجنيد شباب المقاطعة العاطلين وإرسالهم إلى هناك.

ولكن ما الذي جرى لكيكوهيكو بعدما هجره بيرد في ليلة المشنوق الشهيرة تلك؟ كلام امرأته أعطاه الإنطباع بأن شبح صديق كان ينبثق من ماضيه. سألها:

- لماذا تذكرينني بهذه القصة القديمة؟ حتى اني لا أذكر أنني أخبرتك عنها.

- كنت أقول لنفسي إذا وُلد لنا صبي يمكننا أن نسميه كيكوهيكو.

نسميه كيكوهيكو؟ كان بيرد سيضحك ساخراً. كأنَّ هذا الطفل المخيف سيكون له اسم . . .

قالت امرأته:

- بيرد، إذا هجرته أعتقد أنني سأطلب الطلاق.

لا شكَّ أنها قلَّبت هذه الجملة مرات في رأسها مذ استلقت على هذا السرير. ولينتهي، فكّر بيرد: إذا كان متأكداً من أنه جبان ولا يمكن الاعتماد

عليه، لا يبقى له غير أن يمضي بقية حياته التعيسة في جلد زوج محبط. . . في هذه اللحظة يموت الطفل في مستشفى فخم وأنا لا أنتظر غير هذا، بينما تزن امرأتي إحساسي بالمسؤولية ومستقبل زواجنا! إني أخوض لعبة خسرتها سلفاً، ويجب أن أستمر في التظاهر بها. قال:

- لن يموت الطفل.

عادت حماته إلى الغرفة مع الشاي. وبما أنها تتظاهر بنسيان حديثهما في الممشى، وبما أن امرأة بيرد لا تريد كما يبدو أن تتابع نقاشها مع زوجها، تناول حديثهم للمرة الأولى مواضيع بلا أهمية. حتى ان بيرد حاول أن يضحكهما بقصة الرجل القصير الذي طفله بلا كبد.

قبل أن يقترب من سيارة السبور الحمراء، استدار بيرد ليتأكد من أن جميع نوافذ العيادة محجوبة بأوراق الشجر.

كانت إيميكو نائمة وراء المقود، شبه ممددة على المقعد. أحس بيرد تقريباً، وهو ينحني ليوقظها، أنه تحرر من ناس غرباء ليجد من جديد عائلته الحقيقية.

قالت إيميكو فيما هي تنهض: هذا أنت يا بيرد؟

وصعد بسرعة إلى السيارة.

سألها:

- ألا يزعجك أن نمرّ على شقتي وعلى المصرف قبل أن نذهب إلى المستشفى؟

أدارت إيميكو المحرّك وانطلقت بسرعة كبيرة.

- أأنت متأكدة من أنك استيقظت جيداً؟ ألا تحلمين أنك تقودين على أوتوستراد؟

ـ لا، بيرد. . . حلمت أنني أمارس الجنس معك.

ـ ألا تفكرين إذن أبداً في شيء آخر؟

ـ رغماً عني، بعد الذي جرى بيننا. . . لا ينجح الأمر غالباً هكذا. أليس شيئاً رائعاً لو كان دائماً كذلك؟ للأسف، هذه الأشياء لا يمكن أن تدوم. حتى قبل أن ندرك ذلك سيضجر واحدنا من الآخر.

كان بيرد سيقول «لكنها ليست سوى البداية» ـ ولكن، نظراً إلى السرعة التي تقود بها إيميكو الـ «إم. جي»، كانا قد وصلا إلى أمام بيته. قال:

ـ أعود بعد خمس دقائق. حاولي أن تبقي مستيقظة هذه المرة: لا يمكنك أن تحلمي بأنك تمارسين الجنس كل خمس دقائق. . .

جمع من غرفة النوم بعض الأغراض التي سيحتاج إليها إذا أقام في بيت إيميكو، متحاشياً أن ينظر إلى المهد الذي كان يشبه تابوتاً صغيراً أبيض. أخذ أيضاً رواية بالإنكليزية لمؤلف أفريقي، وانتزع عن الحائط خريطتي أفريقيا، طواهما بعناية ووضعهما في جيب معطفه.

لمحتهما إيميكو حين عاد، وسألت!

ـ هل هو دليل طريق؟

ـ نعم، طبعاً.

ـ دعني أرى إذا كانت هناك طريق مختصرة إلى المبتشفى.

هذا سيهدُّني. إنها خرائط أفريقيا! أولى خرائط طرق حقيقية امتلكها.

قالت وفي صوتها ظلٌّ سخرية:

ـ آمل أن تسمح لك الفرصة باستعمالها.

بعد المصرف ذهبا إلى المستشفى. ترك بيرد إيميكو في السيارة وتوجَّه إلى المكتب لتعبئة أوراق استشفاء الطفل. لم يكن الأمر سهلاً لأن المولود

الجديد بلا اسم . وكان على بيرد أن يجيب على أسئلة بلا نهاية . حتى انتهى بالغضب :

ـ ابني مائت ، وربما هو ميت الآن . هل ضروري إلى هذا الحد أن يكون له اسم ؟

أخيراً استسلم الموظف . أما بيرد الذي بلغ به الأمر حد الإقتناع بأن الطفل مات ، فاستعلم عن الأوراق الخاصة بالتشريح وحرق الجسد . ولكن حين وصل إلى الطبيب المختص أعاده هذا فوراً إلى رشده سائلاً إياه ببرود :

ـ لماذا أنت فاقد الصبر هكذا لترى ابنك ميتاً؟ ليست تكاليف الاستشفاء مرتفعة للغاية . . . ولا بد أنك مضمون؟ الحقيقة أن ابنك تسوء صحته لكنه لا يزال يحيا جيداً . إذن خفف عن نفسك قليلاً وتصرَّف كوالد طبيعي .

سجَّل بيرد رقم هاتف إيميكو على ورقة في مفكرته وأعطاها للطبيب راجياً منه الاتصال إذا طرأ شيء . وعاد بسرعة إلى السيارة حتى دون أن يطلب رؤية ابنه ، شاعراً أن العالم كله ينظر إليه كشخص غير مرغوب فيه . كانت إيميكو نائمة أيضاً . عادا إلى بيتها في حرّ ما بعد الظهيرة المرهق ، وتمددا عاريين على السرير في انتظار المستجدات .

لم يفكرا في شيء آخر، ولم يصطحب بيرد إيميكو لشراء الغداء ، خائفاً أن يتصلوا به في غيابه .

استمعا بعد الغداء إلى عازف بيانو روسي في الراديو، ولكن بصوت خفيف لا يطغى على رنين الهاتف .

أخيراً نام بيرد نوماً مضطرباً ، يوقظه تكراراً رنينٌ متخيَّل . حتى انه حلم بأنه فتح السماعة وأبلغوه بموت الطفل . استيقظ تماماً في منتصف الليل وشعر بأن وضعه النفسي يشبه مجرماً ينتظر ساعة القتل . وبعزاء عميق تحقق من وجود إيميكو إلى جانبه . لم يكن أبداً ، مذ بلغ سن الرشد ، في هذه الحاجة إلى شخص آخر .

- ٩ -

في صباح اليوم التالي ذهب بيرد بسيارة إيميكو إلى المدرسة. انتبه إلى أن وجود الـ «أم. جي» القرمزية في الباحة المكتظة بالطلاب يحمل بعض الفضيحة لكنه لم يهتم. مذ بدأت مشاكله كان يشعر بأن لا مبالاته تزداد تجاه أي شيء آخر.

في غرفة الأساتذة قال له المسؤول عن القسم أن الرئيس يريد أن يراه. هذا أيضاً لم يترك في بيرد أي تأثر.

قال له زميله مبتسماً بخبث:

ـ أنت فعلاً شخصية مهمة! لا أعرف إن كنت شجاعاً أو فقط لا تعي ما تفعل، ولكن يمكن القول لا تنقصك الجسارة...

لم يستطع بيرد وهو يدخل الصف أن يمنع نفسه من تقطيب حاجبيه بارتياب، لكنهم لم يكونوا طلاب البارحة أنفسهم، وقال ليشجع نفسه إن غالبيتهم دون شك لا تعرف شيئاً مما حدث. لاحظ خلال الدرس أن بعضهم ينظر إليه بفضول. هؤلاء على الأرجح يعرفون، غير أن في نظراتهم نوعاً من المشاركة الودية، وتصرَّف بيرد كأن شيئاً لم يكن.

حين غادر الصف اقترب منه شاب. كان من الواضح أنه ينتظره. ورأى بيرد أنه الذي دافع عنه البارحة.

قال : صباح الخير.

ـ صباح الخير.

ـ لا شك أن الرئيس استدعاك؟ صديقي عمل قصة من حادثة البارحة . . . قال للرئيس إنك كنت تترنح وتقيأت في الصف ، لكن خمسة أو ستة منا مستعدون لنشهد أنه كان مجرد عسر هضم . فكرنا من الأفضل أن نكلمك أولاً لنحظى بموافقتك .

كان يتكلم بثقة ، بنبرة من يقدم مساعدة مبتهجاً بنفسه ، مع ابتسامة تكشف عن أسنانه الناصعة البياض .

قال بيرد :

ـ بل كنت مترنحاً . رفاقك هم المخطئون . أنا مذنب فيما يتهمني به طُهْرِيُكم .

مضى ، فتبعه الشاب .

ـ لكن يا أستاذ، إذا تكلمت هكذا ستطرد! الرئيس زعيم الخلية المحلية لرابطة مكافحة الكحول . . .

ـ هل تمزح؟

ـ الأفضل بكثير القول أنك كنت تعاني من عسر هضم . . . في هذا الفصل ليس الأمر غريباً . يمكنك القول أنهم يدفعون لك معاشاً بخساً واضطررت إلى تناول أي طعام كان .

ـ لا أريد أن أكذب ولا أريدكم أن تكذبوا من أجلي .

ـ إذا طُردت ماذا ستفعل ، استاذ؟

قرر بيرد ألا يهتم بكلام الطالب . لم يكن يريد مطلقاً أن ينخرط في أية مؤامرة . كان يشعر أنه أصبح متطرفاً في الحذر ـ ولا شك كان لشعوره ما يكفي من الأشياء حتى الآن ليعيب بها نفسه .

تابع الطالب :

ـ ولكن ربما لا تتمسك تماماً بوظيفتك؟ ناظر دروس يقود «أم . جي .» حمراء . . . لا بدَّ أن يتساءل الرئيس!

ترك بيرد فجأة الشاب الذي ضحك ملء أسنانه واتجه نحو الخزانة ليعيد علبة الطباشير والكتاب . وجد في درجه غلافاً باسمه . كلمة من صديقه المسؤول عن قسم اللغات السلافية . لا شك أنهم اتخذوا قراراً في شأن السيد ديلشيف . كان بيرد سيقرأها لكنه عدل ودسها في جيبه . إذا كانت مقابلته مع الرئيس سيئة قد تحمل له هذه الرسالة بعض العزاء . . .

كان مظهر الرئيس يقول لبيرد انه يمكنه انتظار السوء . استسلم له . .

ـ بيرد، لدينا عمل صغير سيء يجب تسويته . ولا أخفي عليك أني أنا أيضاً منزعج مثلك .

كانت نبرة الرئيس ، الصارمة والعملية في الوقت نفسه ، تشبه نبرة رجل أعمال سينمائي . لم يكن يبلغ الأربعين ، لكنه هو الذي حوّل هذه المدرسة الخاصة إلى ثانوية ، وينوي حالياً تحويلها إلى معهد تحضيري لدخول الجامعة . كان حليق الرأس ويرتدي نظارات على القياس ـ زجاجتان بيضويتان مثبتتان على هيكل ضخم مستقيم ـ تبرز تفاوت ملامحه . ورغم ثقته الظاهرة ، كان في نظره شيء يمسّ دائماً بيرد .

قال بيرد :

ـ أعرف إلام تلمّح وأعرف خطئي .

ـ التلميذ الذي شكا يشارك بانتظام في جريدة المدرسة . إنه ولد يوحي قليلاً بالود . سيكون مزعجاً إذا أحدث فضيحة . . .

طبعاً . أعتقد الأفضل أن أقدّم استقالتي .

قالها بيرد بسرعة ليسهل الأمور على الرئيس . شخر هذا بصوت عال وتصنّع تعبير الأسف . وقال :

ـ سيتألم البروفسور حتماً.

فهم بيرد التلميح: يتمنى الرئيس أن يشرح هو نفسه الوضع لعمه. وافق بإشارة من رأسه وهمّ بالخروج شاعراً بأن الغضب سيجتاحه إذا بقي أكثر.

ـ بقي شيء آخر، بيرد بلغني أن بعض التلاميذ يقولون انك كنت تعاني من عسر هضم لا أكثر، وأنهم يهددون بالانتقام من التلميذ الذي نتحدث عنه. هو أكد أنك أنت الذي حرَّضتهم. هذا ليس صحيحاً، أليس كذلك؟

توقف بيرد عن الابتسام وقال بجفاف:

ـ لا أريد أن استغلَّ المزيد من وقتك.

قال الرئيس بنبرة صادقة:

ـ أنا متألم لهذه القصة بيرد. كنت دائماً لطيفاً، تعرف... أكنت مترنحاً فعلاً؟

نعم. كان ترنحاً بالفعل.

وخرج.

بينما هو يعبر الباحة متجهاً إلى سيارة إيميكو تقدم منه الحارس وسأله بلطف:

ـ هل تغادرنا فعلاً يا استاذ؟ أنا آسف، تعرف...

أكيد، كان الخبر ينتشر بسرعة... أجاب بيرد الحارس العجوز الذي كان يحبه كثيراً، بنبرة تكلفت النعومة:

ـ أرح بالك: سأزعجكم بعد حتى نهاية الفصل...

كان حليفه الذي لا مفرَّ منه ينتظره جالساً على رفراف الـ «أم. جي»، وقفز نحوه ما أن رآه يقترب.

ـ إذن؟ ماذا جرى؟ قلت له عسر هضم؟

ـ قلت له الحقيقة .

ـ صرخ الشاب مشمئزاً :

ـ تباً! هذا خبيث! تعرف أنه سيطردك؟

صعد بيرد إلى السيارة وأدار المحرك . كان جلد المقعد والمقود حارقين .

ـ ماذا ستفعل الآن يا استاذ؟

فكر بيرد : ماذا أنوي أن أفعل؟ كما لو أن لدي أدنى فكرة . . . وفواتير العيادة والمستشفى . . . لكن لهيب الشمس منعه من وضع فكرتين واضحتين جنباً إلى جنب .

ـ لماذا لا تصبح دليلاً؟ يمكنك أن تبتزّ دولارات من السياح عوض أن تكتفي ببضع ينّات بائسة تكسبها من هذه المدرسة . . .

سأل بيرد باهتمام :

ـ هل تعرف أين يوجد مكتب خدمات لهذا؟

ـ سأستعلم . أين يمكنني الاتصال بك؟

ـ سنلتقي بعد الصف في الأسبوع المقبل .

قال الطالب متحمساً :

ـ موافق! اعتمد علي .

بلغ بيرد الشارع باحتراس . كان يتمنى أن يتحرر من الطالب ليتمكن من قراءة الرسالة في جيبه ، لكنه ، وهو يقود بعجلة تنبه إلى أن هذا الولد أسدى له معروفاً هو في غاية الامتنان : لولاه لأضناه فقدان وظيفته .

توقف على محطة ليملأ الخزان بالوقود ، مستفيداً من الفرصة ليقرأ رسالة صديقه . لم يستجب السيد ديلشيف لايعاز المفوضية ولا يزال يعيش في شينجوكو مع فتاة مشبوهة السمعة . لا يريد أن يقطع علاقته بوطنه مختاراً الحرية

أو الجاسوسية، لا - إنه فقط غير قادر على الانفصال عن هذه الفتاة. طبعاً تخاف المفوضية أن تُستغل هذه الحادثة سياسياً: إذا روَّجت إحدى الدول الغربية إشاعات في هذا الخصوص قد تنتج عنها انعكاسات خطيرة. لذلك تأمل حكومة السيد ديلشيف عودته إلى المفوضية في أسرع وقت لتعيده إلى بلاده، ولكن لا مجال مطلقاً لطلب المساعدة من البوليس الياباني لأن ذلك يشيع المسألة وهو أمر غير مناسب. من جهة أخرى، إذا جربت المفوضية أن تستعمل هي القوة سينتج عن ذلك بالتأكيد شغب يستدعي تدخل البوليس، وهو أمر يعرفه السيد ديلشيف. في النتيجة توصلت المفوضية، وهي لا تعرف بمن تلوذ، إلى الطلب من أعضاء قسم الدروس السلافية أن يحاولوا بالسرية التامة إقناع السيد ديلشيف بلا معقولية سلوكه. والقسم سيجتمع يوم السبت، في الواحدة بعد الظهر، في مطعم مقابل للجامعة - وبيرد له صلة خاصة بالسيد ديلشيف ويعتمدون حتماً على حضوره.

السبت، بعد الظهر. سيذهب، نعم... مفترضاً ألا ينبئوه خلال هذا الوقت عن موت الطفل لأن ذلك على الأقل سيبدل رأيه. وفي أية حال، كانت هذه الرسالة شيئاً حسناً...

توقف أمام مخزن بقالة ليشتري بيرة وعلبة سومون. وعند إيميكو وجد الباب مقفلاً بالمفتاح. هل خرجت؟ انتابه غضب لا معقول. وإذا حاول المستشفى الإتصال به؟ غير أنه عندما دار دورة حول البيت ونادى إيميكو، انفتحت ستائر الغرفة وتنفس بيرد مطمئناً.

سألها فور أن فتحت الباب:

- ألا أخبار من المستشفى؟

- لا، لا شيء.

استولى عليه تعب مفاجىء، كما لو أن خبر موت الطفل وحده يمكن أن يعطي معنى لكل ما فعله منذ الصباح.

سأل بنبرة عدوانية:

- لماذا تقفلين الباب بالمفتاح في وضح النهار؟

- أخاف، يخيل إليَّ دائماً أن أمراً سيئاً ينتظرني في الخارج.

- أمر سيىء؟ لا أعرف أية مصيبة يمكن أن تحدث لك. . .

- لم يمض وقت طويل على انتحار زوجي. . . أتعتقد أنه الوحيد الذي يمكن أن تحدث له مصيبة؟

أدارت له ظهرها وعادت إلى غرفتها. تبعها بيرد متحسساً طريقة بين فوضى غرفة الجلوس، مثبتاً عينيه على كتفيها العاريتين، وتوقف فجأة على باب غرفة النوم: فتاة طويلة بعمر إيميكو ممددة على السرير وسط غيمة من دخان السجائر، عارية الكتفين والذراعين. قالت بصوت فاتر:

- مرحباً بيرد، مضت قرون لم نتقابل فيها.

- صباح الخير.

شرحت إيميكو:

- لم أرغب في انتظار هذه المخابرة وحدي. طلبت منها أن تنضم إلي.

كانت الفتاة هي أيضاً رفيقة بيرد في الصف. تخرجت منذ سنتين ولم تفعل أي شيء مقسمةً أن جميع الوظائف التي عرضت عليها لا تليق بها. وبعد سنتين من البطالة، أصبحت مقدمة برامج في محطة إذاعية من الدرجة الثالثة.

سألها بيرد.

- ألا تشتغلين اليوم؟

- جميع برامجي تبث بعد منتصف الليل.

يتذكر بيرد فضائح عديدة اشتركت فيها، جارَّةً معها الإذاعة. ولا ينسى أيضاً إلى أية درجة كان يتقزز منها حين كانا طالبين، وأنها لم تكن فقط مديدة القامة بل سمينة أيضاً.

اقترح برصانة وهو يضع البيرة وعلبة السومون على جهاز التلفزيون.

- ألا يمكننا تهوية الغرفة قليلاً؟

قامت إيميكو وفتحت نافذة في الحمام - لكن صديقتها أشعلت سيجارة أخرى من غير أن تهتم بنظرة بيرد المعارضة. كانت يداها شنيعتين، بأظافر مطلية ببرنيق فضي. وعلى الشعلة البرتقالية لولاعتها «الدانهيل» لاحظ بيرد، رغم الشعر الذي يستر نصف وجهها الثنيات المحفورة في جبهتها وفي وجهها المهموم. شيء ما كان يقلقها.

سأل بيرد:

- ألا يزعجكما الحر؟

أجابت صديقة إيميكو بصوت متكدر:

- الأحرى بلى! لكن تيارات الهواء تضرُّ في الصداقة الحميمة...

كانت تنظر بجحد إلى إيميكو المنشغلة في المطبخ بترتيب مشتريات بيرد، وبين وقت وآخر ترميه بنظرة عديمة الدماثة. فكر بيرد: الأرجح أن هذه اللطافة ستثرثر عن علاقتنا. وإذا أمكن ستتحدث عنا كذلك في الإذاعة.

كانت إيميكو علقت إحدى خرائط أفريقيا على حائط الغرفة، والكتاب الذي دسه في حقيبته كان على السرير. لا شك أنها كانت تقرأه حين وصلت صديقتها. انزعج بيرد من ذلك: أن تعامل كنوزه الأفريقية بهذه الوقاحة، تلك علامة سيئة... وفكر: الأكيد أني لن أرى أبداً سماء أفريقيا. ولا مجال بعد لادخار المال للسفر، الآن وقد خسرت وظيفتي.

قال لايميكو:

- طُردت.

- لا؟ ما الذي جرى بيرد؟

تحتم عليه أن يسرد الحادثة، والحملة التي شنها ضده المتزمت الشاب،

وكل ما جرى، وكان يبدو له أنه كلما تكلم ازداد تكدره.

قالت إيميكو:

- كيف تركت نفسك تطرد هكذا بسهولة؟ كان عليك الدفاع عن نفسك. وإذا كان بعض تلاميذك مستعدين للوقوف إلى جانبك كان يجب أن تدعهم يفعلون!

فكّر بيرد: بالفعل، لماذا استسلمت بهذه السهولة؟ لأول مرة يأسف على عمله الضائع. كيف يفسر الأمر لعمه؟ هل سيقدر على الاعتراف بأنه كان ثملاً نهار ولادة الطفل ومتهالكاً جداً في اليوم التالي وهذا كلفه مركزه؟ كل ذلك بسبب الـ «جوني ووكر» التي أهداها له البروفسور بالضبط...

قال:

- أشعر أن لا شيء كان يمكنه تبرئة سلوكي. ثم كنت متسرعاً جداً في الحسم مع الرئيس، حتى أني لم أشأ التحدث في الموضوع.

تدخلت صديقة بيرد:

- تقصد أنك لم تشعر بحق الدفاع عن نفسك فقط لأنك تنتظر موت طفلك؟

قال بيرد منزعجاً من تطفل إيميكو ولامراعاة صديقتها معاً:

- تقريباً هكذا.

قريباً سيعرف الجميع...

قالت إيميكو.

- الناس الذين يعتقدون أنهم بلا أية حقوق هم الذين ينتحرون. أرجوك بيرد لا تقتل نفسك.

- لماذا تتحدثين عن الانتحار؟

ـ بسبب زوجي، هكذا حدثت الأمور. إذا أردت يوماً أن تشنق نفسك في هذه الغرفة، أعتقدُ أن لي العين اللاّمَة.

ـ لكني لم أفكر أبداً في قتل نفسي!

ـ ألم ينتحر والدك؟

ـ كيف عرفت؟

ـ أنت قلت لي حين شنق زوجي نفسه لكي تواسيني. كنت تريد إقناعي بأن الانتحار شيء مبتذل يحدث كل يوم...

ـ لا شك أني لم أكن في حالتي الطبيعية.

ـ حتى أنك أخبرتني بأنه ضربك قبل ذلك بوقت قليل...

سألت صديقة إيميكو بيرد بفضول:

ـ ما هذه القصة؟

لم يجب بيرد، لكن إيميكو فعلت عوضاً عنه.

كان بيرد في السادسة من عمره، وذات يوم سأل والده: «أبي، أين كنت قبل قرن من ولادتي؟ وأين أصبح بعد قرن من موتي؟ قل لي أبي: ماذا سيحدث لي عندما أموت؟»، وبدون أن يتفوه والده بكلمة، ضربه بعنف على وجهه محطماً اثنين من أسنانه ـ ولم يعد بيرد يخاف الموت. ولكن بعد ثلاثة أشهر، أطلق والده رصاصة في رأسه من مسدس ألماني قديم من الحرب العالمية الأولى...

قال بيرد مفكراً في والده:

ـ إذا مات الطفل من سوء التغذية ينقص خوف من مخاوفي. لا أعرف ماذا سأفعل إذا طرح ابني في عمر السادسة السؤال نفسه. سأعجز عن ضربه لإرغامه على التفكير في شيء آخر غير الموت...

استدارت صديقة إيميكو نحوه وسألت:

- بيرد، أليس انتظار موت الطفل هذا أسوأ الأشياء؟ الشك، القلق . . . أليس لأجل هذا أنت متألم؟ حتى إيميكو تبدو وقد هزلت . . .

- مع ذلك لا يمكنني أن أذهب وآتي به وأقتله!

- لو فعلت، على الأقل لن يكون عليك أن تستمر في الكذب على نفسك. تلطخ يديك، هذا سيكون أكثر صدقاً . . . فات الأوان الآن يا بيرد كي تستر حقيقة وجهك: اخترت أن تصبح دنيئاً لأنك أردت أن تخبىء عن معهدك الصغير وجود طفل غير طبيعي. هذه الأنانية منطقية. لكنك اخترت أيضاً أن تترك لطبيب مجهول تنفيذ مهمتك الوسخة بينما أنت تتظاهر بلعب دور الضحية البريئة، كما لو أنك رجل شهم أرهقه القدر - وهذا، بيرد، يسيء إلى توازنك العقلي! يجب أن تعترف أخيراً: أنت تكذب على نفسك.

- أكذب على نفسي؟ سيكون صحيحاً لو أني أحاول أن أقنع ذاتي بأني نظيف اليدين منتظراً بفارغ الصبر موت طفلي. لكني أعي تماماً بأني سأكون مسؤولاً عن هذه الميتة!

قالت صديقة إيميكو بنبرة مشككة:

- هذا ما أتساءل عنه. أخاف حين يموت ألا ترى الأمر بهذه السهولة. ستكون الفاتورة باهظة، بيرد . . . وسيكون حينئذٍ على إيميكو أن تسهر على عدم انتحارك مع أنك في ذلك الوقت ستعود على الأرجح إلى زوجتك التعيسة.

- قالت لي زوجتي أنها ستطلب الطلاق إذا مات الطفل بسبب إهمالي.

قالت إيميكو مزايدة على كلام صديقتها:

- لن يكون هذا أيضاً سهلاً، بيرد. لن تقبل الطلاق. ستفعل أي شيء لتبرىء نفسك معيداً خلط الأوراق. فات الأوان على الطلاق: فَعَلَ السم فعلته. أتعرف كيف سينتهي هذا؟ لا أحد، حتى امرأتك، سيصدقك فعلاً يوم تتبين أن كل حياتك كانت قائمة على الكذب، وتنتهي بالانتحار. العلامات الأولى لتدمير الذات ظاهرة الآن يا بيرد!

سأل بيرد بمرح متكلف:

ـ رأيك في النتيجة أني أسير في طريق مسدود؟ مستقبلي إذاً بلا منفذ؟

قالت صديقة إيميكو:

ـ بالطبع، بل أنت الآن في طريق مسدود.

ـ أخيراً، عجباً! أن تضع امرأتي طفلاً غير طبيعي إنما هو حادث بسيط لا هي ولا أنا مسؤولان عنه! ولست شيطاناً إلى درجة خنق هذا الطفل بيدي ولا ملائكياً إلى درجة تعبئة جيش من الأطباء والتضرُّع إليهم لإنقاذ حياة طفل محكوم عليه بأن يكون مسخاً... كل ما يمكنني فعله هو أن أدعه في المستشفى في انتظار أن يموت طبيعياً. عندما ينتهي كل شيء، إذا بقيت أحس بالخطأ، فأسفاً عليّ!

ـ إنما هنا تخدع نفسك بيرد. يجب أن تكون لديك شجاعة الاختيار: إما أن تكون وحشياً أو ملاكاً حتى الأخير.

تنبه بيرد فجأة إلى أن رائحة كحول خفيفة تموج في الغرفة الغارقة في الدخان. نظر في وجه صديقة إيميكو المحمّر في شكل غير طبيعي، وقال:

ـ أنت شاربة.

ـ هذا لا يلغي شيئاً مما قلت... أياً يكن تفكيرك الآن فإنما بعد موت الطفل ستدرك أنك لم تكفَّ يوماً عن خداع نفسك. أتجرؤ على النكران أن خوفك الكبير الآن هو ألا يموت هذا الطفل غير الطبيعي بل أن ينمو كعشبة رديئة؟

انقبض قلب بيرد وعاد يعرق. ظل صامتاً لفترة طويلة، شبيهاً بكلب مضروب، ثم نهض وذهب يجلب البيرة من البراد دون أن يقول كلمة. لم يكن يرغب في الشراب، لكنه مع ذلك تناول قنينة وثلاثة أقداح.

انتقلت صديقة إيميكو إلى غرفة الجلوس، وبعدما أشعلت سيجارة سرحت شعرها ثم تبرجت، وارتدت ثوبها. سألتها إيميكو:

- تريدين بيرة؟

- لا ، شكراً، يجب أن أذهب إلى الإذاعة .

- ولكن لا يزال الوقت مبكراً!

- أنا متأكدة انك ما عدت في حاجة إلي، الآن وبيرد هنا . . .

ثم قالت لبيرد :

- إنني إلى حد ما جنية صديقاتي الطيبة . يحتجن إليّ لأنهن لا يعرفن جيداً ماذا يردن . حين يكون أحد مهموماً أحضر وأعيد إليه القوة . . . بيرد، حاول ألا تشرك إيميكو كثيراً في مشاكلك العائلية ، أتريد؟ واعرف جيداً اني معك من كل قلبي . . .

خرجت معها إيميكو لمساعدتها في إيجاد تاكسي . شرب بيرد ما تبقى من البيرة الفاترة في حوض المطبخ وأخذ دوشاً بارداً . لم يشعر مرة بأنه متألم هكذا، وبدا له شيئاً لا يصدق تقريباً أنه كان قادراً، أيضاً أول من أمس، على مواجهة زمرة السوقيين الذين هاجموه .

أنعشه الدوش وأيقظ فيه كذلك إثارة غامضة . تمدد عارياً على السرير. كانت رائحة الفتاة الأخرى قد تبدّدت . إنه تماماً في عرين إيميكو. ولكن أين يمكنها أن تكون تأخرت هكذا؟

حين عادت بعد ساعة تقريباً استقبلها بيرد بمزاج سيء.

قالت إيميكو لتدافع عن صديقتها :

- كانت غيورة .

- غيورة؟

- لن تصدقني، لكنها الفتاة الأكثر قابلية للانجراح في زمرتنا الصغيرة. بين وقت وآخر تنام احدانا معها لترفع قليلاً من معنوياتها . وتتصور أن هذا يكفي ليجعل منها جنيتنا الطيبة . . .

منـذ أن سلـم بيرد الطفـل للمستشفـى لم تعـد تَنْفـذ فيه الاعتبـارات الأخلاقية، وطبيعة العلاقة التي يمكن أن تقيمها إيميكو مع صديقتها تركته أكثر بروداً.

قال:

ـ ربما هي الغيرة التي جعلتها تقول ما قالت، لكن هذا لا يلغي شيئاً من كل ما قالته لي...

- ١٠ -

شاهدا جريدة الأخبار في التلفزيون، بيرد ممدداً على السرير، وإيميكو جالسة على الأرض شابكة ذراعيها حول ساقيها. كانت الحرارة هبطت وطراوة الليل لطيفة على جسديهما العاريين. ولأنهما أخفضا صوت التلفزيون - مفكرين دائماً في المخابرة الهاتفية - لم يكن صوت المذيع أكثر من طنين نحلة. ثم ان بيرد لم يكن حتى يصغي أليه. كان يتابع الصور لا أكثر. لا شيء في العالم الخارجي كان يجد صدى فيه - كان ينتظر، ببساطة، مثل ميكانيكي راديو ليس حتى متأكداً أن رسالة ستصله.

ألقت إيميكو على الأرض فجأة الكتاب الذي كان على ساقيها - «حياتي بين أشباح الأدغال» للكاتب الأفريقي آموس توتوولا - وانحنت إلى الأمام وأطفأت التلفزيون. فكَّر بيرد وهو يرى الصورة تمحى متحولةً إلى مجرد نقطة بيضاء ثم تختفي تماماً: «ربما مات طفلي الآن...» وانتبه إلى أنه منذ الصباح لم يفعل شيئاً سوى الانتظار ولم يفكر سوى في موت الطفل. شيء ما فيه، بالتأكيد، كان مقفلاً.

قالت له إيميكو، وبريق غريب في عينيها، شيئاً لم يفهمه.

- ماذا؟

- أقول أن هذا يمكنه فعلاً أن يسجل بداية حرب ذرية تجرُّ إلى فناء العالم...

ـ ماذا تقولين؟ لديك طريقة في قول أي شيء، أحياناً. . .

ـ أي شيء؟ ولكن، ألم تكن تستمع إلى الأخبار؟

ـ أية أخبار؟ لم أكن أستمع . . .

نظرت إليه إيميكو مشككة، لكنها فهمت أنه كان صادقاً.

ـ هيا، بيرد، عدْ إلى رشدك.

ـ ماذا يحدث؟

ـ أعلن خروتشيف عودة التجارب النووية. يظهر أن الروس صنعوا قنبلة أقوى من جميع القنابل الهيدروجينية.

ـ آه، هذا؟

ـ لا تبدو متأثراً.

ـ أعترفُ أن لا . . .

ـ غير معقول!

فكّر بيرد: غير معقول فعلاً، لكن الحقيقة هي حتى أن نبأ انطلاق الحرب العالمية الثالثة يتركه لا مبالياً. . . قال:

ـ لا أعرف لماذا، ولكن صراحة لا أبالي. . .

ـ ألا تهمّك السياسة؟

فكّر بيرد قبل أن يجيب:

ـ لم أعد مهتماً بالوضع الدولي كما كنت أيام الدراسة. تذكرين كل تلك التظاهرات التي كنا نشترك فيها، أنت وزوجك وأنا؟ الحقيقة أن كل ما كان يشغلني حينذاك هو إمكان حصول حرب نووية. كان يجب إذن أن أتأثر بالأخبار، مع ذلك حتى اني لم أنتبه إليها. . .

ـ بيرد!

- كأن جهازي العصبي لا يقبل أن يخترقه شيء سوى ما يتعلق بالطفل .

- يمكن تصديق ذلك بالفعل . فأنت لم تتكلم على أي شيء آخر منذ خمس عشرة ساعة . . .

- شبح هذا الطفل يلاحقني .

- ليس هذا طبيعياً بيرد! إذا طال الأمر ستصبح مجنوناً! إن تركت نفسك منجذباً إليه هكذا لن تعود إلى وضعك الطبيعي حتى بعد موت الطفل . تذكَّر «ما كبث» : «يجب ألا نفكر هكذا في هذه الأمور ، لأنها قد تجعلنا مجانين . . .» .

- لا أستطيع أن أمنع نفسي ، وربما سيستمر هذا بعد أن يموت . ماذا تريدينني أن أفعل؟ من جهة ثانية معك حق : قد يكون الأمر أسوأ بعد موته . . .

- ولكن لم يفت الأوان كي تخابر المستشفى وتطلب منهم أن يغذّوه جيداً ويعطوه حليباً عوض الماء المحلّى!

قال بصوت جريح :

- هذا ليس حلاً . كنت ستعرفين السبب لو رأيت رأسه . . .

نظرت إليه إيميكو وجعلها وجهه تدير عينيها . أضاءت النور واستلقت قربه . كان الطقس الآن بارداً كفاية كيلا يزعجهما تلامس جسديهما . بقيا فترة طويلة صامتين وبلا حراك ، ثم ضمت إيميكو بيرد إليها بخوف غير اعتيادي . شعر بنفور غامض وهو يحس على فخذه شعر عانتها . أحب أنها توقفت عن الحراك ، وكان يتمنى في الوقت نفسه ألا تغفو قبله . كانت الدقائق تمر . وكلاهما يتظاهر بالجهل أن الآخر مستيقظ . أخيراً قالت إيميكو فجأة ، بصوت مرتفع في شكل غريب ، كأنها تضع حداً للعبة :

- البارحة حلمتَ بالطفل ، لا؟

- بلى ، لماذا؟

ـ ماذا حلمت؟

ـ ليس شيئاً مهماً . . . بدا لي أني أرى قاعدة صواريخ على القمر وسرير الطفل متروكاً وسط هذا المنظر الموحش .

ـ كنت تتحرك كمولود جديد متشنج اليدين وتئن كالأطفال . خفتُ ألا تعود أنت نفسك .

وأضافت بعد صمت :

ـ بيرد ، إذا كففت عن الاحتفاظ بكل هذا لنفسك وأشركتني أكثر في هذه القصة ، يخيَّل إلي أني أستطيع مساعدتك أفضل .

ـ بالفعل إنها مسألة جد شخصية . ولكن يمكن في مسألة مشابهة أن يساعدك شخص آخر على إيجاد الحقيقة . . . ما يحدث لي يعطيني الانطباع بأني أغرق وحدي في نفق بلا قرار ، مبتعداً أكثر فأكثر عن عالم الآخرين . كيف يمكنني أن أشرك أي واحد في ما أعاني؟

ـ لا معاناة في نظري على الإطلاق بلا جدوى يا بيرد . إني أتكلم عن خبرة . . . بعد انتحار زوجي نمت مع رجل لا أعرف شيئاً عنه وخفت أن ينقل لي السفلس . استولى عليَّ هذا الرهاب طويلاً ، وخلال كل تلك المدة بدا لي أن هذا الوسواس بلا منفذ على الإطلاق . مع ذلك ، حين انتهى الأمر ، اكتشفت إني اكتسبتُ شيئاً . ولم أعد أخاف أي شيء من هذا النوع .

أرغمت نفسها على ابتسامة جاءت مفتعلة . شعر بيرد بأنها تحاول أن تدفعه إلى التفكير في شيء آخر غير مأساته الخاصة . قال :

ـ بمعنى آخر ، حين تضع امرأتي في المرة المقبلة طفلاً غير طبيعي لن أتأثر بشيء؟

ـ ليس هذا ما أقصد . . .

في الواقع لم يكن لديهما ما يقولانه . نهضت إيميكو وقالت :

ـ أريد أن آخذ منوماً ، تريد أنت أيضاً؟

كان سيقبل لكنه أبعد عنه الفكرة: إذا رن الهاتف ولم يسمعه . . .

ـ لا . أكره أن استيقظ في الصباح مخبولاً من المنومات .

ظل مستيقظاً لمدة طويلة بعد نوم إيميكو. لم يكن يجرؤ على الحراك رغم المغص الذي أصابه . كان بيرد يكره أن يقاسم أحداً الفراش . حاول أن يتذكر ماذا كان يفعل في السنة الأولى من زواجه حين كان ينام في سرير واحد مع زوجته . أخيراً قرر أن ينام على الأرض ، ولكن ، حين تحرك ، أرسلت إيميكو أنةً والتصقت به من غير أن تستيقظ تماماً ، فعدل عن مغادرة السرير.

انبثق في خاطره شك جديد: لو أعطى الطبيب والممرضات مع ذلك حليباً للطفل ؟ تخيل المولود الجديد برأسين وفمين يبتلع بشراهة رضاعتين في الوقت نفسه . . . انتابه قلق أناني من جديد. أنا متأكد أنهم يعلفون الطفل الآن . . .

كان الصباح يطلع ، لكن بيرد كان يعرف أنه لن يجرؤ على إشراك إيميكو في شكه الجديد. سيعود إلى المستشفى ليعرف حقيقة الأمور.

انحنى بيرد والطبيب كتفاً على كتف ليريا الطفل من خلال الحاجز الزجاجي . كانوا أخرجوه من المحضنة ووضعوه في سرير عادي صغير، ولم يكن يبدو عليه الهزال البتة ولا الاحتضار على الإطلاق . حتى ان بيرد شعر أيضاً بأنه أصبح أكبر من البارحة وبأن زائدة رأسه الفطرية كبرت كذلك . ظهرَ بيرد كأنه يحاول لمسهابحركات صغيرة رعناء ، وسأل الطبيب :

ـ هل تعتقد أن هذه تضايقه؟

ـ ليست لديَّ أدنى فكرة . الأكيد أن الجلد ملتهب . قد يكون هذا يتآكله . عملنا له إبرة مضادة للجراثيم ، لكننا لم نجرؤ على فعل أخرى : قد ينفجر النسيج ويسبب مضاعفات جديدة .

فتح بيرد فمه ليتكلم . كان يريد أن يتأكد من أن الطبيب لم ينس أنه ، هو الأب ، يتمنى موت الطفل ـ لكنه لم يجرؤ.

قال الطبيب :

ـ لحظة الخطر يجب أن تأتي اليوم أو غداً .

تمتم بيرد بصوت منخفض كأنه يخاف أن يسمعه الطفل :

ـ أشكرك على كل ما فعلته .

ثم حيا الطبيب ملتهب الوجنتين وخرج بسرعة من الغرفة .

تمنى ، وهو يغلق الباب وراءه ، ألا يكون تكلَّم . وانتبه فيما هو يبتعد إلى أن له حركة الطفل نفسها وهو يحك رقبته . في الممشى امرأتان جامدتان نظرتا إليه بهيئة غريبة . شعر بيرد بالغثيان وراح يركض .

جاء صديقه لملاقاته بينما هو يبحث عن مكان ليوقف سيارة إيميكو. لقد تأخر نصف ساعة ، ووجه صديقه يعبّر عن نفاد صبره . قال بيرد :

ـ أخذت سيارة إحدى صديقاتي . آسف لتأخري . هل الجميع هنا؟

ـ لا أحد سوانا نحن الاثنين . الآخرون ذهبوا إلى مظاهرة في «بارك هيبا» .

تذكر بيرد أن إيميكو حدثته مرة ثانية أثناء الفطور عن القنبلة السوفياتية من دون أن يعيرها الإنتباه . . . كل هذا لا يعنيني؛ أدرت ظهري للعالم الخارجي . للآخرين الحق في التظاهر: ليس لهم أن ينشغلوا بطفل غير طبيعي ، هم . . .

ولكن يبدو أن صديقه لا يشاركه الرأي . فقد قال بنبرة ساخطة :

ـ إنهم ليسوا بضعة آلاف متظاهر في «بارك هيبا» الذين سيزعجون السيد خروتشيف . لكن لا أحد من الآخرين يريد المشاركة في قضية ديلشيف ، لهذا لم يأتوا .

لا شك أن بيرد عرف بصمت ، وهو يفكر في أعضاء القسم الآخرين ، انهم يبررون موقفهم . كثيرون كانوا يعملون في مؤسسات تصدير مهمة ،

والآخرون ملتحقون بوزارة الخارجية أو أساتذة جامعة. فإذا استحوذت الجرائد على قضية ديلشيف وجعلت منها فضيحة ستتعرض وظائفهم للخطر. لا أحد بينهم كان حراً كبيرد، ناظر الدروس الذي على أهبة الطرد. . .

سأل صديقه:

- ماذا سنفعل؟

- لا يمكننا فعل شيء سوى رفض طلب المفوضية.

- وأنت أيضاً لا تريد أن تشترك في هذه القصة؟

طرح بيرد السؤال بلا أي قصد سيء، لكن صديقه احمرَّ وبدا بمظهر المهان. ففهم بيرد أن الآخر كان يتوقع ما اعتقده.

قال بيرد:

- أظن يجب أن نضع أنفسنا مكان السيد ديلشيف. ربما هذه هي فرصته الأخيرة للتخلص من المتاعب. إن لم نقنعه بالعودة سيتدخل البوليس. كيف يمكن أن نرفض؟

- إذا اقتنع، جيّد، عظيم. ولكن إذا انقلب الأمر إلى فضيحة نكون أقحمنا أنفسنا في حادثة عالمية. . . لا أظن من الحكمة المشاركة في هذه المسألة.

كان بيرد يشعر أن صديقه لم يكن مخطئاً، لكن كلمتي «فضيحة» و «حادثة عالمية» تركتاه في برود تام. هو ذاته غارق الآن حتى أذنيه في فضيحة طفله المسخ، والحادثة العائلية الناتجة عن هذه الولادة تبدو له أفظع بكثير من أية حادثة عالمية. لم يكن خائفاً من المكائد التي ستحاك أكيداً حول شخص ديلشيف، وتنبه للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام إلى حرية التصرّف الجديدة التي ينعم بها. كانت سخرية الأمر تسلية، فقال:

- إذا قررت أنت والآخرون عدم الإستجابة لطلب المفوضية سأرى السيد ديلشيف وحدي. كنا صديقين مخلصين. إذا تحولت المسألة إلى

فضيحة وأُقحمت فيها، لا بأس، تباً لي. أعتقد سيان عندي.

لم يكن يكدره في الواقع، وهو يتمنى بصدق أن يذهب لمساعدة ديلشيف، أن يجد ما يشغله خلال اليومين المقبلين.

قال له صديقه بارتياح، وبحرارة مضايقة إلى حد ما:

- إذا كنت مقتنعاً هكذا فاذهب! ربما هو الحل الأفضل. ولأكون صريحاً، كنتُ قليل الأمل في أن تقبل هذا العمل. الآخرون جميعهم خافوا حين عرضت لهم الوضع. أنت لا. بيرد، إني أحترمك!

ابتسم بيرد بتهذيب حريصاً على عدم جرح صديقه. حالياً، عدا ما يتعلق بالطفل، كانت قدرته على الانعتاق بلا حدود - لكنه فكّر بمرارة: لم يكن هناك أي مبرر كي ينظر إليه البضعة ملايين ساكن في طوكيو، الخالي البال، كموضوع ممتع.

قال صديقه مبتهجاً:

- إذا شئتَ أدعوك إلى الغداء... لنذهب ونشرب شيئاً أولاً.

وافق بيرد ودخلا المطعم. وبعدما استراحا قليلاً سأل صديق بيرد:

- قال لي بيرد، من أين جاءتك هذه العادة في حك رقبتك؟

في زاوية الزقاق الضيق المنفتحة كركام مسنن بين مطعم كوريّ وبار، تساءل بيرد إن لم يكن هناك منفذ آخر لهذه المتاهة. إذا صدّق الرسم التخطيطي الذي رسمه صديقه فهذا الزقاق بلا مخرج. كيف لرجل هارب أن يدفن نفسه في مكان مشابه؟ هل شعر السيد ديلشيف بنفسه في هذا المكان أنه مطارَد ولن يتمكن من إيجاد ملجأ آخر؟ لكن الأرجح أنه لم يجد نفسه هكذا بعد...

دخل بيرد في الزقاق المسدود وتوقف لحظة أمام باب مساكن مفروشة

تعيسة المظهر كي يجفف جبهته . حمل حذاءه بيده ودخل . كان الحائط الأيمن للممشى مزيناً بنقش أثري ، وإلى اليسار مجموعة أبواب شبيهة بأبواب الزنزانات . تقدّم بيرد مدققاً في الأرقام . ووراء كل باب كان يقدّر وجود بشر . ماذا كانوا يفعلون ليقاوموا حر ما بعد هذه الظهيرة الخانق؟ أليست إيميكو نموذج قبيلة يوصد جميع أعضائها الأبواب على أنفسهم بالمفاتيح طوال النهار؟ في نهاية الممشى درج ضيق . كان بيرد سيصعد حين شعر بوجود شخص وراءه . امرأة ضخمة منتصبة وسط الممشى تنظر إليه بارتياب .

سألته بنبرة عدائية :

ـ عمَّ تبحث؟

أجاب بيرد ببرود :

ـ جئت أرى واحداً من أصدقائي ، أجنبياً .

ـ أميركي؟

ـ يعيش مع يابانية . . .

ـ لماذا لم تقل هذا؟ الأميركي ، إنها الغرفة الأولى في الطابق فوق .

واختفت المرأة . إذا كان ديلشيف هو هذا «الأميركي» المعني يكون بكل تأكيد نال عطف هذه العملاقة . . .

صعد بيرد الدرج ، وعلى قرصه الضيق وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ديلشيف فاتح الذراعين لاستقباله ، كما بدا شديد الاندهاش لرؤيته .

وضع بيرد حذاءه لصق الحائط وشد على يد ديلشيف . كان ديلشيف يذكر بعدَّاء : لم يكن مرتدياً غير قميص سبور زرقاء ومايوه . شعره الأشقر مقصوص قصيراً جداً لكنه لا يزال يرفع شاربين كثيفين أشقرين أيضاً . لا شيء فيه يعطي انطباعاً بأنه رجل هارب ـ ما عدا ربما رائحة جسده القوية غير المتوقعة من رجل نحيل مثله . لا شك أنه لم يتمكن من الاستحمام مذ دفن نفسه هنا .

شرح ديلشيف لبيرد بلغة انكليزية رديئة أن صديقته خرجت إلى عند

المزيّن، ثم دعاه للدخول، لكن بيرد رفض متذرعاً باتساخ قدميه. كان في الواقع يتملكه خوف غير معقول من أن يجد نفسه مسجوناً في غرفة ديلشيف التي كانت نافذتها الوحيدة مسدودة بمصراع خشبي.

قال حريصاً على تأدية رسالته:

- سيد ديلشيف، مفوضيتك تطلب منك أن تعود حالاً.

أجاب ديشليف مبتسماً:

- هذا غير وارد. صديقتي تتمسك ببقائي معها.

- أنا آخر مندوب لإبلاغك. إن لم تصغ إليَّ سيأتي واحد من المفوضية وربماالبوليس الياباني.

- أشك في تدخل البوليس. تذكَّرْ أني لم أزل ديبلوماسياً.

- ربما... ولكن إن أتى رجال المفوضية فسيعدونك إلى بلادك.

- نعم، انتظر ذلك. لقد سببتُ المتاعب، سيحولونني إذن إلى وظيفة أقل شأناً أو سأطرد، أعرف.

- سيكون أفضل أن تعود إلى المفوضية بملء إرادتك يا سيد ديلشيف.

- غير وارد. قلت لك: صديقتي تريدني أن أبقى.

- لم تفعل هذا إذن لأسباب سياسية؟ تختبىء هنا فقط بسبب صديقتك؟

- نعم، فقط.

- أنت رجل غريب يا سيد ديلشيف...

- لماذا؟

- هل تتكلم صديقتك الإنكليزية؟

- لا. نتفاهم من غير كلام.

- إذن... في هذه الحال لا يبقى لي غير أن أنقل قرارك. سيأتي رجال المفوضية لأخذك...

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ إذا أخذوني رغماً عني أظن صديقتي ستفهم .

أخفض بيرد رأسه . مهمته اخفقت . وفيما هو يتناول حذاءه سأله ديلشيف :

ـ هل وُلد طفلك يا بيرد؟

ـ نعم ، لكنه غير طبيعي . لديه فتق دماغي ـ يمكن القول أن له تقريباً رأسين . أنتظر موته . . .

أمحت ابتسامة ديلشيف :

ـ تنتظر موته؟ ولكن يجب إجراء عملية له!

أجاب بيرد بضنى :

ـ حتى لو أجروها لا حظ واحداً في المئة أن يصبح طبيعياً .

لماذا شعر بالحاجة إلى التحدث في هذا الموضوع؟

قال ديلشيف :

ـ كتب كافكا في رسالة إلى والده أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله والد أو والدة لطفلهما هو استقباله بحنان حين يأتي إلى العالم . . . لماذا رفْض هذا الطفل؟ أنانية الأب ليست قابلة للعذر أكثر من الآخرين يا بيرد!

أحسّ بيرد بالاحمرار ـ هذه أصبحت عادةً بالتأكيد . ولكن الضربة هذه المرة لم تكن منتظرة، من رجل لم ير فيه حتى الآن غير أجنبي غريب الأطوار متورط في مغامرة عبثية .

تمتم ديلشيف :

ـ يا للصغير المسكين!

نظر إليه بيرد وفهم أنه لم يكن يتحدث عن الطفل بل عنه هو .

وفيما هو يغادر ، أهداه ديلشيف قاموساً لغوياً صغيراً كذكرى . طلب منه

بيرد أن يكتب عليه إهداء . فكتب كلمة واحدة بلغته ، ووقّعها ، وقال لبيرد :

- في وطني ، هذه الكلمة تعني «الأمل» .

التقى بيرد ، وهو يخرج من الشارع المسدود ، يابانية صغيرة . كان واضحاً أنها خارجة من عند المزين ، وكانت تعلو وجهها مسحة شحوب مرضي . أوشك بيرد أن يكلمها ، لكنه عدل وهو يسرع ليبلغ المكان الذي أوقف فيه سيارة إيميكو . إنها أشد ساعات النهار حراً . وفي كل المدينة ، لا شك أنه كان الوحيد الذي عليه أن يعدو .

- ١١ -

استيقظ بيرد صباح الأحد متبيناً بدهشة أن نافذة غرفة النوم مفتوحة على مصراعيها، وفي غرفة الجلوس مكنسة كهربائية تخرُّ شعر بضيق من هذا النور غير المألوف ومن عريه نفسه وقد اعتاد عتمة البيت. ارتدى بنطاله وقميصه بسرعة، وانتقل إلى غرفة الجلوس.

قالت له إيميكو بابتهاج:

- صباح الخير بيرد.

كان رأسها ملفوفاً بمنشفة حمام وتدير المكنسة بنشاط. بدا وجهها أكثر فتوة.

قالت:

- جاء والد زوجي لرؤيتي. ذهب يتجول قليلاً ريثما انتهي من تنظيف البيت.

- الأفضل أن أغادر.

- لماذا تهرب؟

- لدي شعور بأني أخبىء نفسي هذه الأيام. عندما نختبىء نتحاشى الغرباء...

ـ يعرف عمي أن بعض الرجال يقضون الليل غالباً عندي. هذا لم يصدمه مطلقاً. أعتقد أنه سيغتاظ أكثر بكثير إذا عرف أن أحد أصدقائي هرب لئلا يراه.

ـ طيِّب، في هذه الحال سأحلق ذقني.

عاد إلى غرفة النوم. أذهله رد فعل إيميكو. انتبه إلى أنه مذ سكن عندها لم يفكر إلا في نفسه ولم ير فيها سوى صورة عن مأساته الشخصية. لقد تحول إلى نغفة أنانية، واثقة من امتيازاتها ولا ترى غير جدران شرنقتها الداخلية...

بعدما انتهى من الحلاقة نظر طويلاً في المرآة. بدت له تجعدات جديدة في وجهه، ليس سببها الهزال فقط.

قال لايميكو وهو يعود إلى غرفة الجلوس:

ـ مذ تعلقت بك لم أكف عن التصرف كغول أناني. حتى اني انتهيت بأن أجد ذلك طبيعياً.

سألته بنبرة ماكرة:

ـ أتقدّم لي الاعتذارات؟

ـ نمت في فراشك، تركتك تطعمينني، حمَّلتك أيضاً سلاسلي الخاصة. لا يحق لي هذا ـ ومع ذلك أشعر كأني هنا في بيتي.

قالت إيميكو بقلق:

ـ هل ستغادر؟

نظر إليها ببرد واجتاحه شعور جديد: يعرف، لن يجد أبداً في طريقه كائناً يشعر معه بهذا الارتياح. وصعدت نحو فمه رغبة الاعتذار.

ـ حتى لو وجب أن تغادر في النهاية، ابق بعد قليلاً يا بيرد...

راح واستلقى على السرير مغمض العينين، يداه تحت رأسه، ليتمتع وحده بعرفان الجميل.

جلس بيرد وإيميكو وعمها حول الطاولة في غرفة الجلوس، التي تنظمت أخيراً، يتحدثون عن أفريقيا ورؤسائها الجدد واللغة السواحلية. جلبت إيميكو خريطة أفريقيا وبسطتها على الطاولة. سأل عمها فجأة:

- لماذا لا تذهبان معاً في رحلة إلى أفريقيا؟ إذا باعت إيمي هذا البيت يصبح معكما كل المال اللازم...

قالت إيميكو وهي تنظر إلى بيرد:

- ليست فكرة سيئة. هذا سينسيك تلك القصة التعيسة يا بيرد. وأنا سأنسى ربما انتحار زوجي....

قال عم إيميكو:
- بالضبط. ستنفعكما الرحلة كثيراً.

شعر بيرد بالرعب يستولي عليه، منذهلاً من هذا الاقتراح المفاجىء. قال متنهداً:

- لا يمكنني أن أفعل ذلك.

- لمَ لا؟

- أذهب إلى أفريقيا لأنسى أن ابني مات... سيكون هذا في غاية السهولة. لا، لن أستطيع.

قالت إيميكو ومسحة هزء في صوتها:

- بيرد شاب مثالي إلى أقصى الحدود.

احمرَّ بيرد بشدة واتخذ مظهر الملامة. لو اقترح عم إيميكو هذه الرحلة إلى أفريقيا فقط بهمٍّ اقتلاع شبح زوجها منها، يعرف أنه كان سيخادع بالقبول. لكنه كان يحبُّ أن يسمعه يقول هذا بحرفيته. حزرت إيميكو أفكاره، وقالت بسرعة:

- على بيرد أن يعود إلى زوجته في غضون ثمانية أيام.

ـ آه، نسيت . . . إذا أبديت اقتراحي فلأني لم أر إيمي مبتهجة هكذا منذ موت إبني. أفهم أنك لا تريدني أن أراها هكذا.

نظر بيرد بذهول إلى الرجل العجوز. كان قصيراً، أصلع تماماً، يذكر رأسه قليلاً برأس أسد البحر وملامحه الصافية لا تفسر أي شيء من أفكاره. لم يجد بيرد ما يجيب به واكتفى بابتسامة مبهمة، جاهداً في إخفاء خيبة الأمل التي تضغط على حلقه.

في المساء، مارس بيرد وإيميكو الحب طويلاً، بصمتٍ، بكسلٍ، كحيوانين غير مكترثين. الفعل الجنسي بالنسبة إليهما الآن يشكل جزءاً من الحياة اليومية، وكان لدى بيرد انطباع بأنه ينام مع إيميكو منذ مئة عام. لم تعد تشله المخاوف الغامضة والنفور غير المعقول، وأصبح للبساطة التي تبحث فيها إيميكو عن اللذة وتستقبلها بها شيء ما مريح. كان يتذكر كم الفارق كبير مع امرأته، برودهما، انحراف مزاجهما الدائم. بعد سنوات عديدة من الزواج استمرا يصطدمان في العوائق النفسية ذاتها في كل مرة يمارسان الحب. كان لدى بيرد انطباع دائم بأنه يغتصب زوجته برعونة وهي، مستلقية وجاهدة للتغلب على اشمئزازها، كانت تبدو دائماً على وشك أن تدفعه وتتعارك معه. كان ذلك ينتهي دوماً بالطريقة نفسها: إما أن يتشاجرا وينفصلا غير راضيين، أو يعجّل بيرد في الانتهاء من شعور مقيت بأنه يتلقى صدقة. كان يأمل أن تغير ولادة الطفل حياتهما الجنسية، والآن . . .

بعدما أوصل إيميكو مرات عديدة إلى الذروة، ترك نفسه يبلغ اللذة بدوره، مع أنه خاف من الليل الطويل الذي سيلي حين رن الهاتف. أرادت إيميكو أن تعيده إليها، لكنه تملص من العناق وركض إلى غرفة الجلوس.

كان شاباً، طالباً معاوناً في المستشفى، الذي نقل إليه رسالة الطبيب.

ـ كان الطبيب سيتصل بك قبل الآن، لكننا كنا مشغولين جداً وأرهقه العمل. كلفني أن أطلب منك المجيء إلى المستشفى غداً صباحاً في الحادية عشرة، إلى قسم العمليات.

تنفس بيرد بعمق وفكر: «مات الطفل . . . سيجرون التشريح» . وقال :
- عظيم . سأكون عندكم في الحاديثة عشرة . اشكرك .

مات الطفل ! ولكن لماذا الطبيب مرهق؟ هل كانت الأمور إذاً معقدة إلى هذا الحد؟ عاد بيرد، مرتجفاً من رأسه إلى قدميه، إلى إيميكو، إلى سرير إيميكو، ملجأه الوحيد، وأخذها ثانية . هذه المرة بلغ في بضع ثوان لذةً كئيبة وانهار إلى جانب إيميكو .

سألت : الطفل؟

- نعم ، انتهى . ولكن يمكن القول أن هذا لم يتم لوحده . . . يريدونني أن أمرَّ غداً صباحاً .

قالت بلطف :
- يجب أن تأخذ منوماً وتنام . لم يبق شيء لتنتظره الآن .

أضاءت لمبة السرير وذهبت إلى المطبخ . غطى بيرد عينيه بيديه المرتعشتين بعد، منبهراً بالنور . لماذا احتجز الطفلُ المائتُ الطبيبَ وقتاً طويلاً هكذا؟ عادت إيميكو وناولته كأس ويسكي مع عدد من الحبوب ابتلعها دفعة واحدة .

- كانت لكلينا .

- اعذريني .

نامت قربه من جديد وقالت :
- سأخبرك قصة في انتظار أن تنام . إنها مقطع من رواية أفريقية . ألم تقرأ الفصل المتعلق بالشياطين القراصنة؟

هز بيرد رأسه نافياً .

- عندما تحبل امرأة، يعين الشياطين القراصنة في ما بينهم من منهم سيتسلل إلى بيت الأم المقبلة . وفي الليل يأخذ مكانه في الجنين، وهكذا يكون في يوم الولادة شيطاناً متنكراً في طفل يأتي إلى العالم .

كان بيرد يصغي بصمت. تقول الخرافة ان هذه الشياطين الأطفال الجميلة في شكل خاص لا تعيش طويلاً. عندما تموت وتدفن يأخذ الشيطان من جديد شكله الحقيقي، ويهرب من المقبرة إلى مخبأ الشياطين القراصنة حاملاً معه كل القرابين التي قدمتها الأم لشفاء طفلها. وختمت إيميكو:

- . . . يسمي الأفريقيون هؤلاء الأطفال: «الأطفال - المولودون - ليموتوا».

سيخبر بيرد يوماً ما هذه القصة لزوجته . . . ولأن طفلنا هو بالتأكيد «وُلِدَ ليموت» ستتصوره جميلاً في شكل خاص. أنا نفسي ستتبدل ذكراي عنه - وسيكون الأضخم بين جميع أكذوباتي، لأن طفلي ولد فظيعاً، ويمكن القول كان برأسين.

وغفا وهو يحك رأسه.

نظرت إيميكو طويلاً في الوجه المنقبض لصديقها النائم. تساءلت إذا لم يكن فسَّر مخابرة المستشفى خطأ. أكانت ربما تعني بالعكس أن الطفل لم يمت، وأنهم نجحوا في إطعامه طبيعياً، وهو في طريق الشفاء؟ وإذا كانوا يستدعون بيرد لتقرير العملية الجراحية؟ في جميع الأحوال، نوم هذه الليلة سيعني له بضع ساعات من الراحة . . .

غادرت إيميكو السرير بأقصى ما يمكنها من الهدوء، ولفَّت نفسها بشرشف كأنها تلتف بتوجة، وذهبت إلى غرفة الجلوس. كانت تنوي أن تتفحص خريطة أفريقيا حتى طلوع الشمس.

فجأة أحمرّ بيرد من الغضب، واعياً خطأه، كما لو أنهم يهزأون منه.

كان قد دخل مكتب معاون مدير المستشفى حيث ينتظره عدد كبير من الأطباء الشباب، من بينهم طبيب طفله الذي يعرفه سابقاً وبروفسور عجوز يظهر لطيفاً وواثقاً. حين رآهم فهم بيرد. شعر وهو يجلس وسط الأطباء بأنه سجين أشغال شاقة أعادوه إلى سجنه بعد محاولة هرب فاشلة. ألم يتفق هؤلاء

الرجال ـ حراسه ـ على اجتذابه إلى فخ بمخابرة هاتفية مبهمة؟

ولأنه ظل صامتاً، عرَّف عنه طبيب طفله :

ـ ها هو والد الطفل . . .

ثم انسحب إلى زاوية في الغرفة مع ابتسامة غامضة .

كان على البروفسور أن يندهل من نظام التغذية الذي مارسوه على الطفل والطبيب الشاب على الأرجح خان بيرد .

قال الجراح :

ـ فحصت طفلك البارحة واليوم . أعتقد أننا سنتمكن من إجراء العملية إذا لم تتفاقم حالته .

«هذا إذاً!» قال بيرد في نفسه صامداً أمام الهلع الذي أصابه . يجب أن يقاوم هؤلاء الأوغاد ، أن يحتمي من هذه البشاعة الفائقة ، أن يمنعهم من إجراء العملية ـ وإلا فسيكتسح هذا الطفل عالمه كجيش احتلال . . .

سأل عفوياً :

ـ أهناك حظ في أن ينمو طبيعياً؟

ـ من المستحيل بعدُ الإجابة بثقة .

توتر بيرد . لن يضحكوا عليه بلا عقاب . ومثل نمر في قفص استعد للقفز من المنفذ الذي انفتح له :

ـ ما هو الإفتراض الأقرب إلى الاحتمال؟

ـ أكرر لك أنه لا يمكن قول أي شيء قبل العملية .

قال بيرد دون أن يخجل هذه المرة .

ـ في هذه الحال أعتقد أني أفضل عدم إجراء العملية .

نظر إليه جميع الأطباء كأنهم يحبسون أنفاسهم . وشعر بيرد الآن بأنه

قادر على كل شيء ـ لكن الجراح لم يدع نفسه يقع عن المطيَّة. سأل:

ـ هل أفهم أنك مستعد لأخذه معك؟

ـ قال بيرد بلا تردد:

ـ نعم.

أجاب الجراح من غير أن يكتم استياءه:

ـ في هذه الحال لا ينفع أن نجادل أكثر.

وقف بيرد والآخرون أيضاً، فكر: انها نهاية المباراة. كنت على حق في هذا المسخ الصغير...

في الممشى، سأله طبيب الأطفال الشاب بنبرة مترددة:

ـ أصحيح أنك ستأخذه؟

ـ سأعود وآخذه بعد هذا الظهر.

ـ لا تنسَ أن تجلب معك شيئاً لتلفه به.

استعجل بيرد مغادرة المستشفى. ولا شك بسبب الشمس الصاعقة ونظاراته الشمسية، بدت له إيميكو التي كانت تنتظره في السيارة، مريعة. قال:

ـ إنها غلطة. كنت مضحكاً.

ـ هذا ما كنت أخافه...

سأل بفظاظة:

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف مجرد حدس...

ـ قررت أن آخذ الطفل.

ـ إلى أين؟ إلى العيادة أم إلى بيتك؟

أحس بيرد بذعر مفاجىء. لم يفكر حتى في ما سيفعله بعد ذلك؛ اقتصر

على مواجهة الأطباء، ثم ترك الطفل على ذراعيه طوال ما تبقى من حياته. لن تقبل العيادة أبداً أن تسترد هذا العبء الذي نجحت في التخلص منه - وإذا أخذ الطفل إلى شقته سيكون عليه مواجهة الحشرية المتعاطفة لصاحبة المنزل. إذا استمر يطعمه عنده الماء المحلى سيجعله الجوع يصيح من الموت ويجمع كل الجيران. وإذا مات بعد بضعة أيام من هذا النظام الغذائي، فأي طبيب سيوافق على توقيع وثيقة الوفاة؟ كان بيرد يرى نفسه الآن موقوفاً بتهمة قتل طفل، واسمه في جميع الصحف...

قال بإرهاق:

- معك حق. لا يمكنني أخذه إلى أي مكان.

- إن لم تكن عندك خطة معينة...

- وبعد؟

- كنت أتساءل إذا يمكننا اللجوء إلى طبيب أعرفه. أنا متأكدة من استعداده لمساعدتنا... استعنت به مرة لإجهاضي.

شعر بيرد من جديد بأنه في وضع محارب مصمم على أن يقاوم وحده العدو الذي قتل رفاقه. قال:

- إذا وافق، أنا أيضاً.

أضافت إيميكو وفي صوتها عياء غير مألوف:

- طبعاً، إذا طلبنا مساعدته، هذا يعني أننا أصبحنا شريكين في جريمة...

- ليس نحن معاً. أنا وحدي.

فكر بلا مزح: لمرة واحدة على الأقل تخلص من كذبة. كان كأنه خطا خطوة إضافية نحو سجنه.

- لا، بيرد، بل نحن... سترى. ألا يزعجك أن تقود أنت؟

أدرك توتر إيميكو الشديد. بعدما جلس وراء المقود نظر إليها في المرآة الارتدادية: كان وجهها أصفر وشفتاها شاحبتين. ولكن هو نفسه لا شك أن شكله ليس أفضل... وانطلق بعنف.

- الطبيب المعني، بيرد... هو الرجل القصير المستدقُ الرأس الذي ناداني في أول ليلة قضيتها عندي. تذكر؟

- نعم أذكر.

- بعد أن نتصل به نستعد لجلب الطفل.

- قال لي الطبيب أن آخذ معي ثياباً.

- لو نمر إلى بيتك؟ يجب أن يكون معنا ما يلزم.

- لا، أفضل ألاّ نمر...

استعاد بيرد بوضوح أليم الاستعدادات التي أتاحتها ولادة الطفل المنتظرة، وأرعبته فكرة رؤية المهد الأبيض من جديد، وطاولة الزينة والأشياء الأخرى.

قالت إيميكو:

- أفهم. لن تغفر لك امرأتك أبداً استعمالك أغراض الطفل لأجل...

نعم، كان هناك هذا أيضاً... ولكن ماذا سيغير ذلك؟ يكفي أن تعرف امرأته أن طفلها مات حتى لا تغفر له أبداً. الآن وقد تقرر الأمر سيكون عاجزاً عن الدفاع عن حياتهما المشتركة بأكاذيب مبهمة.

أرغمه ضوء أحمر على الوقوف على مفترق. سأل:

- من أين تريدين الاتصال؟

كان لديه انطباع بأنه مجرم هارب.

- من مخزن البقالة، قرب البيت. ونستغل الفرصة لشراء الغداء.

ـ إذا شئت . . . أتعتقدين أن صديقك سيقبل أن يساعدنا؟

ـ لديه مظهر بريء، لكنه يفعل أشياء لا يمكنك تصورها. مثلاً . . .

صمتت فجأة وعضت على شفتها السفلى كأنها لا تجرؤ على قول الفظاعات التي ارتكبها صديقها. قبض غثيان على حلق بيرد. وقال:

ـ نتغدى في يوم آخر. الأفضل أن نفكر في ما يجب شراؤه للطفل. الأسهل أن نذهب إلى مخزن كبير.

ـ سأذهب وحدي، بيرد. ستنتظرني في السيارة.

ـ أفضّل هكذا . . . عندما عرفت زوجتي بأنها حامل ذهبنا لشراء حاجيات من هذا النوع. كان كارثة. كل هؤلاء النساء الحاملات وأولادهم الباكون.

صمتا للحظة ثم قال بيرد.

ـ حين يموت الطفل وتتعافى امرأتي أعتقد أننا سنطلّق. حينئذٍ أصبح فعلاً رجلاً حراً ـ كذلك ليس عندي وظيفة. شيء فضولي. من سنوات وأنا أحلم بهذا، وحتى هذا لا يفرحني . . .

ـ بيرد، حين تصبح حراً . . . ألا يمكننا بيع البيت والذهاب معاً إلى أفريقيا كما اقترح عمي؟

أفريقيا، أخيراً! لكن بيرد لم يكن يستطيع أن يتصور سوى أفريقيا موحشة، بلا مذاق. لأول مرة يحدث معه هذا مذ كان صبياً. رجل حر، بلا بهجة، وسط صحراء رمادية . . . هذا الرجل قتل مولوداً جديداً في جزيرة تبعد آلاف الكيلومترات من هنا، ثم هرب وطاف كل أفريقيا، وغير قادر على أسر حتى خنزير بري، حتى ذبابة وهو منتصب هنا، ببلاهة، وسط الصحراء . . .

قال في شبه غيبوبة:

ـ إلى أفريقيا؟

ـ لست في وضعك الطبيعي يا بيرد. أنت مثل حلزون في صدفته. لكنك

ستستيقظ ما إن تضع قدمك على أرض أفريقيا.

لم يجب. فأضافت إيميكو:

ـ خرائطك سحرتني. أريدك أن تطلّق لنستطيع الذهاب معاً إلى هناك ونستخدمها. الليلة الماضية أمضيت ساعات في تفحصها وأنت نائم. أعتقد جيداً بأنك أشعت فيَّ وجْدك... والآن أريدك أن تتحرر. أنا أحتاج أن تكون رجلاً حراً. لم توافق قبل قليل حين قلت لك اننا شريكين لكنك كنت مخطئاً. سنذهب إلى أفريقيا معاً، ألن نذهب يا بيرد؟

جهد بيرد ليقول:

ـ إذا كان هذا ما تتمنينه.

ـ كانت علاقاتنا في البدء جنسية لا غير. وجدت فيَّ ملاذاً ضد قلقك وخجلك. لكني الليلة الماضية وأنا أكتشف في نفسي هذا الشغف الجديد بأفريقيا، فهمت أن رابطاً آخر انعقد بيننا يا بيرد. ارتبطنا على صعيد آخر: أن يكون هناك شغف مشترك، هذا شيء طالما تمنيته، والآن وجدته! لهذا كلمتك عن صديقِي الطبيب: أريد أن نلطخ أيدينا معاً...

بدت واقية الريح تفلَّعت فجأة: كانت تمطر. أظلمت السماء كأن الغسق هبط بغتة.

سأل إيميكو:

ـ هل من طريقة لتغطية السيارة؟ وإلا سيتبلل الطفل...

- ١٢ -

حين انتهى بيرد من ضبط غطاء السيارة الأسود انتبه إلى أن الهواء العاصف في الشارع كان يحمل رائحة المقانق الحارة والثوم الحارق. قليُ قليل من الثوم مع الزبدة، ووضع المقانق، ثم إضافة قليل من الماء: تلك هي الوجبة التي علمه إياها السيد ديلشيف... تساءل بيرد ماذا حدث معه ديلشيف هذا؟ لا شك أنهم أجبروه على هجر صديقته اليابانية والعودة إلى المفوضية. هل حاول المقاومة في مخبأهما في نهاية ذاك الزقاق المسدود؟ هل صرخت صديقته؟ ولكن لا بدَّ في النهاية أخضعوه...

تأمل بيرد سيارة السبور. كانت في هيكلها القرمزي وغطائها الأسود تذكّر بجرح مقشور. جعل التقزز بيرد يرتعش. كانت السماء مظلمة والهواء رطباً وطرياً. الريح تعصف زوابع، والأوراق الجارية من الشجر فوق سطوح البيوت الواطئة زرقاء غامقة ولكن باهرة. انتاب بيرد إحساس عبثي بأنه هو الذي سيموت بيدي مجهض مريب وليس الطفل.

وضع حاجيات الطفل وراء المقعد الأمامي. كانت إيميكو هي التي أزعجت نفسها بشراء ثياب صوفية وجوارب وحتى قلنسوة صغيرة. هذا استغرق منها نحو ساعة فيما كان بيرد ينتظرها في السيارة، حتى انه بدأ يتساءل ما إذا تركته. لماذا بذلت كل تلك المشقة لانتقاء ثياب طفل سيموت؟ ان للنساء اهتمامات فضولية...

نادته من نافذة غرفة النوم :

ـ الغداء جاهز ، بيرد .

وجدها في المطبخ وقد بدأت في تناول المقانق . أغثت رائحة الثوم قلبه .

قالت :

ـ إذا لم تكن جائعاً لماذا لا تأخذ دوشاً؟

ـ أظن أن هذا ما سأفعله .

عادةً كان الدوش الساخن يعيد إليه انتصابه ، ولكن هذه المرة لا . أغمض عينيه وفرك رأسه ووراء أذنيه ـ مثل الطفل . انضمت إليه إيميكو تحت الدوش وطاقية حمّام تلف شعرها ، وبدأت في الاغتسال .

سمع بيرد ، وهو يتنشف ، ضجة مخنوقة في الخارج . أطلّ من النافذة ورأى السيارة مائلة في شكل غريب كسفينة على وشك الغرق . أحد دواليبها الأمامية اختفى . . . ارتدى ثيابه بسرعة وخرج . كانت هناك آثار خطوات في وحل الشارع الصغير. أحدهم رفع الـ «إم جي» برافعة ، نزع دولاباً وحطم ضوءاً. وكانت الرافعة تحت السيارة تشبه ذراعاً مكسورة .

صرخ بيرد لإيميكو التي كانت لا تزال تحت الدوش :

ـ أحدهم سرق دولاباً! آمل أن يكون عندك واحد احتياطي .

ـ نعم ، في الصندوق الخلفي .

ـ من يمكن أن يكون فعل هذا؟

ـ أراهن أنه الصبي الذي جاء في تلك الليلة . حين يكون غاضباً يفعل أي شيء . لا شك أنه مختبىء في مكان ما يراقبنا .

كانت إيميكو كأنها ترى الأمر طبيعياً . أضافت :

ـ إذا تصرّفنا كأن شيئاً لم يكن أراهن أنه سيبكي من الغيظ. فلنجرّب . . .

ـ شرط أن تمشي السيارة .

استبدل الدولاب المفقود ، ثم وجد نفسه أكثر اتساخاً وتصبباً بالعرق مما كان قبل الدوش . يظهر أن المحرك يدور طبيعياً . سيتأخران قليلاً ربما ، لكن الأرجح أن كل شيء سينتهي قبل الليل ولن يقلقا بسبب الضوء المكسور . كان يرغب في دوش من جديد ، غير أن إيميكو كانت جاهزة للذهاب ـ وهو الآن ثائر الأعصاب تماماً حتى ان أدنى تأخر يبدو له لا يطاق .

حين كانا يغادران الشارع الصغير ، رمى أحدهم حصى على السيارة .

طلب بيرد من إيميكو التي كانت باقية في السيارة أن تأتي معه . اتجها نحو الغرفة التي كان يعرفها بيرد جيداً . نوع من التوتر كان يسود المستشفى ، عائد بلا شك إلى المطر ، والريح ، والعاصفة المزمجرة في البعيد . تساءل بيرد وهو يتقدم في الممشى وتحت ذراعه السلة ، ماذا يجب أن يقول للممرضات ليشرح قراره ـ لكن الظاهر يعرفون بأنه سيسترد الطفل ولن يطرح عليه أحد سؤالاً .

قالت الممرضة المناوبة :

ـ من فضلك أن تأخذ هذه البطاقة إلى المكتب وتدفع تكاليف الاستشفاء . في هذا الوقت سأبلّغ طبيب القسم .

ـ جلبتُ معي ثياباً للطفل . . .

ـ أعطني إياها .

لم تخفِ الممرِضة استياءها . تفحصت الثياب قطعة قطعة وردّت لبيرد القلنسوة فوضعها في جيبه .

قال لإيميكو التي كانت شاردة عما يجري :

ـ يجب أن أذهب إلى المكتب .

ـ أذهب معك .

كانت تبدو خائفة من البقاء وحدها. لا أحد تجرأ على الالتفات نحو الحاجز الزجاجي الذي وراءه المواليد الجدد.

طلبت الفتاة من وراء كوَّة المكتب أن يوقّع بيرد على البطاقة وقالت:

ـ أرى أنكم تغادرون... تهانيّ! ماذا سميتم الطفل؟

ـ نحن... لا نعرف حتى الآن.

ـ ولكن يلزمنا اسم لملفاتنا.

اسم! كان هذا يعكّر بيرد من أعماقه. أن تعطي اسماً لمسخ يعني أن تجعله انسانياً أكثر، أن تعرّف عن وجوده ككائن بشري، أن تجعل موته شيئاً أقل حيادية.

قالت إيميكو:

ـ لا ضرر في ذلك، بيرد.

أجاب بيرد مفكراً في كلام زوجته:

ـ سمّهِ كيكوهيكو.

وأشار للفتاة كيف تكتب الاسم.

عملت حساباً سريعاً وأعادت له تقريباً كل المبلغ الذي أودعه كضمانة. لم يتناول الطفل غير الحليب المجفف والماء المحلّى ولم يتطلب سوى قليل من العناية.

قال بيرد لايميكو وهما يعودان إلى غرفة العناية.

ـ هذا المال، هو ما ادخرته للذهاب إلى أفريقيا. وها هم الآن، بعدما قررت قتل الطفل والذهاب إلى أفريقيا معك، يعيدونه إليّ...

أجابت إيميكو بصوت رقيق:

ـ إذن، سيتيح هذا لنا الذهاب فعلاً إلى أفريقيا... بيرد، هذا الاسم:

كيكوهيكو . . . أعرف واحداً كيكوهيكو يُكتب اسمه بالطريقة نفسها. إنه يدير باراً للواطيين .

ـ كم عمره؟

ـ هذا صعب عندما يتعلق الأمر بلوطي . . . ربما أربع أو خمس سنوات أقل منك .

ـ أراهن أنه هو الذي كنت أعرفه منذ بضع سنوات . حصلت معه قصة مع ضابط أميركي أيام الإحتلال وغادر طوكيو .

ـ مصادفة غريبة . . . لماذا لا نذهب لرؤيته . . . بعد ذلك؟

فكر بيرد : بعد ذلك . . . بعد تسليم الطفل للمجهض . تذكر كيف هجر صديقه كيكوهيكو ذات ليلة في مدينة في إحدى المقاطعات ـ والآن الطفل الذي سيهجره اسمه كيكوهيكو. كان للحظة سيعود إلى المكتب ويعطيهم اسماً آخر، لكنه عدل . وقال لإيميكو كأنه يعاقب نفسه :

ـ بالضبط؛ سنمر في الليل ونشرب في بار كيكوهيكو. يجب أن نحتفل بالحدث . . .

كان الطفل الذي اسمه كيكوهيكو ينتظرهما في السلة بكامل ثيابه التي اشترتها له إيميكو. حزر بيرد الصدمة التي كابدتها إيميكو وهي ترى المولود الجديد. بدت زائدة رأسه الفطرية أنها كبرت أيضاً. كانت أكثر احمراراً من وجه الطفل ، لماعة ، منتفخة . الآن وهو مفتوح العينين له هيئة ذابلة لناسك عجوز، لكن ملامحه لم تكن تماماً بشرية .

تمتمت إيميكو بصوت أبح :

ـ لا يشبهك .

ـ لا يشبه أحداً. ليست له حتى هيئة البشر.

قال الطبيب بنبرة عاتبة :

ـ دعونا لا نبالغ .

سألت الممرضة :

ـ هل فعلت اللازم ، في المكتب؟

ـ كل ما يلزم .

ـ في هذه الحال يمكنك أخذه .

سأل الطبيب :

ـ أمتأكد أنك لن تغيّر رأيك؟

ـ متأكد تماماً . أشكركم على كل شيء .

ـ لا تشكرنا . لم نفعل شيئاً .

احمرَّ الطبيب الشاب كأنه يعتذر على كلامه الناشف هكذا ، وأضاف بصوت غير مبالٍ كصوت بيرد :

ـ إذن ، إلى اللقاء ، وحظاً سعيداً .

في الممشى فوجيء المرضى بهيئة بيرد الغاضبة وأفسحوا لهما مجالاً للمرور ، مع ابتسامة متضايقة .

قالت إيميكو قلقة :

ـ بيرد ، هذا الطبيب أو أية ممرضة يمكنهما ابلاغ البوليس .

أجاب بيرد بقسوة :

ـ لا خطر . لا تنسي أنهم هم أنفسهم حاولوا قتله بعدم إعطائه إلا الماء المحلّى . . .

اقتربا من المدخل الرئيسي وتنبه بيرد إلى أنه سيستحيل عليه إخفاء الطفل عن حشرية المرضى والزوار . شعر بأنه لاعب رُكْبي راكض والكرة في يديه نحو الأهداف المعادية التي يدافع عنها فريق كليّ التكامل . قال لإيميكو :

ـ القلنسوة في جيبي . خذِيها وغطِّ رأسه .

فعلت ما قال، ورأى يديها ترتجفان.

قالت إحدى النساء:

ـ كم هو طفل جميل! ملاك حقيقي صغير...

لم يتذمر بيرد.

عاد المطر ينهمر. صعد بيرد إلى السيارة ووضع السلّة على ركبتيه. جلست إيميكو وراء المقود وانطلقت بعنف.

سألت:

ـ كم الساعة؟

نظر بيرد إلى ساعته. لا شك نسي أن يعبئها. منذ ثلاثة أيام وهو يعيش خارج الزمن. قال:

ـ ساعتي متوقفة.

كبست إيميكو زر الراديو. كان صحافي يعلّق على معاودة التجارب الذرية السوفياتية وردود فعلها. الرابطة اليابانية المناوئة للحرب النووية تؤيد القرار الروسي، غير أن انشقاقات ظهرت في داخلها وضحايا هيروشيما احتجوا على موقفها. كيف يمكن الكلام على سلاح ذري «شريف»؟ وحتى لو أُجريت التجارب السوفياتية، في صحراء سيبيريا كيف يمكننا أن نتصور قنبلة هيدروجينية مسالمة؟ أدارت إيميكو الزر إلى محطة أخرى. موسيقى شعبية ـ تانغو بلا نهاية. أطفأت الراديو وقالت لبيرد:

ـ سمعت؟ يمكن القول أن الرابطة خافت أن تحتج.

أجاب بيرد بلا مبالاة:

ـ نعم، يمكن القول.

ـ هل تصدّق إمكان وجود ناس يتمنون حرباً نووية ـ أقصد، يتمنون فناء البشرية لأسباب لا يعرفونها هم أنفسهم؟... في شمال أوروبا حيوان

يسمونه لاموس . وتبين أن حيوانات اللاموس تنتحر أحياناً بالآلاف . أتساءل إذا لم يكن هناك ناس يشبهون اللاموس . . .

أجاب بيرد باللامبالاة نفسها :

ـ يجب أن تضع الأمم المتحدة برنامجاً للتحقيق في أمرهم .

كان الحر يرتفع أكثر فأكثر في السيارة. حاول بيرد أن يفتح زاوية من الغطاء الأسود القديم . قالت إيميكو :

ـ لن تتمكن ، الأفضل أن نقف لحظة ونفتح الباب .

في الوقت نفسه رأى بيرد ، على الطريق تماماً أمامه ، عصفوراً ميتاً . رأته إيميكو أيضاً ، ولتتحاشى سحقه أدارت المقود بسرعة . انزلقت السيارة على الأرض المبلّلة وانغرز أحد دواليبها في أخدود . اصطدمت يداه في لوح القيادة لكنه لم يترك السلة . فكّر : عندما نبلغ المكان سأكون مغطّى بآثار اللطم . قالت إيميكو :

ـ اعذرني .

ـ بسيطة ، لا شيء .

للمرة الأولى منذ مغادرة المستشفى نظر بيرد إلى الطفل . كان وجهه أحمر أكثر فأكثر وبدا أنه يتنفس بصعوبة . هل كان يختنق؟ هز بيرد السلة مرتعباً ، وفجأة راح الطفل يصرخ بصوت حاد إلى درجة لا تُصدَّق. كان سيضع بيرد يده على فمه لإسكاته .

قالت إيميكو :

ـ هناك دائماً انطباع بأن صراخ طفل يعني شيئاً ما. هذا ممكن ، في النهاية . . .

تمتم بيرد متضايقاً :

ـ من حسن الحظ أيضاً أننا عاجزون عن الفهم .

أصبح الحر الخانق وصراخ الطفل غير محتملين بسرعة . أوقفت إيميكو السيارة وفتحت البابين اللذين اندفع منهما المطر والهواء الرطب البارد . ارتجف بيرد وإيميكو . وصاح الطفل أكثر فأكثر وأصبح صراخه الآن تقطعه نوبات سعال .

قالت إيميكو :

ـ ما نفعله خطير . لا تنس أنه خارج من محضنة . قد يصاب بالتهاب الرئة .

أجاب بيرد بصوت كئيب :

ـ أعرف .
ـ ماذا نفعل ليكفَّ عن البكاء ؟
ـ ليست لديَّ أدنى فكرة .
ـ كان يجب أن نجلب معنا حليباً .
سأل بيرد بمرارة :
ـ حليب أم ماء محلّى ؟

ـ سأذهب إلى تلك الصيدلية ، هناك . قد تكون عندهم مصاصات .

رآها بيرد تبتعد تحت المطر الغزير وتذكّر الطالبة الزاخرة بالحياة التي كانتها . خالجه ميل إلى الشفقة على هذه المرأة التي تتخبط الآن في الوحل مثل كلب ضائع . من يستطيع التصور أنها كانت ستصبح هكذا ؟

حين عادت كان عليها مظهر الانتصار . قالت وهي تريه مصاصتين من الكاوتشوك الأصفر :

ـ أخذت اثنتين . الكبرى ، حين تكون أسنانهم تبرز ، لكني أظن أن الأخرى ستفي بالغرض .

ووضعتها في فم الطفل . رغب بيرد أن يسألها لماذا اشترت الأخرى ، لكنه تبين أن الطفل كان يحاول بصق المصاصة . قالت إيميكو بمظهر تعيس :

ـ لا يريدها. أظن أنه صغير جداً بعد. . . ماذا سنفعل؟

قال بيرد وهو يغلق الباب:

ـ لا شيء غير أن ندعه يبكي. فلننطلق من جديد.

ـ في الصيدلية ساعة حائط. إنها أكثر قليلاً من الرابعة. أظن نكون في العيادة حوالي الخامسة.

ـ سيذهلني إذا استطاع البكاء هكذا لمدة ساعة.

الخامسة والنصف. انتهى الطفل بأن نام لكنهما لم يبلغا المكان بعد. منذ نحو خمسين دقيقة وهما يطوفان في دائرة. صعدا وهبطا في منحدرات، عابرين النهر الموحل نفسه، في الإتجاهين، عدداً لا يصدَّق من المرات، وتورَّطا في طرق مسدودة ليجدا نفسيهما دائماً في زاوية رديئة من الوادي. إيميكو التي جاءت سابقاً إلى العيادة كانت تتعرَّف على بعض الأماكن، لكنهما في كل مرة كانا ينتهيان في القرية نفسها ذات الشوارع الضيقة. ولتنتهي، أخذت لسوء الحظ شارعاً باتجاه واحد.

ما عادا يتحدثان. كان كلاهما ساخطاً حتى انهما لم يجرؤا على قول شيء خوفاً من إغاظة واحدهما الآخر. ملاحظة بريئة مثل «أنا متأكد أننا مررنا مرتين من هنا» كانت تجازف في إثارة شجار. عبرا مرات عديدة أمام مركز البوليس حيث كان يمكنهما الاستعلام، لكنهما لم يشاءا أن يلاحظهما. سؤال بوليس عن مكان العيادة، هذا خارج الموضوع: سيارة سبور تنقل طفلاً غير طبيعي إلى عيادة ذات سمعة مريبة قد توقظ بعض الشكوك. ثم ان الطبيب أوصى إيميكو على الهاتف ألا تتوقف في النواحي، حتى لشراء سجائر بشكل أن يتابعا التطواف في دائرة وأن يفكر بيرد، شيئاً فشيئاً، أنهما سيطوفان هكذا طوال الليل أو أن هذه العيادة التي يقتلون فيها المواليد الجدد غير موجودة على الإطلاق إلا في خيال إيميكو. من جهة ثانية، كان خائفاً أن يغفو ويفلت

السلة . غير أن هذا لم يمنعه من النوم ، لكن صوت إيميكو المبتهل سحبه من شروده :

ـ بحق السماء ، بيرد ابق مستيقظاً! أنا أيضاً نعسانة وأخاف الاصطدام بشيء ما . . .

يمكن القول أن المساء هبط. خفَّت الرياح لكن مطراً قليلاً ناعماً كان يضايق الرؤية . أرادت إيميكو أن تشعل الأضواء ، غير أن ذاك الذي حطَّمه صديقها لم يكن يعمل .

حين عبرا مرة جديدة أمام مركز البوليس ، أشار لها شرطي شاب كي تقف . وتجمَّد بيرد وإيميكو حين اقترب من السيارة وانحنى لينظر إلى الداخل .

ـ رخصة قيادتك من فضلك .

كان يتكلم بصوت سلطوي ليؤثر فيهما ، مع أنه لم يكن أكبر من تلاميذ بيرد .

ـ هل تعرفين أن أحد أضوائك لا يعمل؟ لا أستطيع أن أدعك تمشين هكذا . . . أهو طفل الذي معكما هنا؟

كان الطفل شديد الاحمرار ويتنفس بصعوبة أكثر فأكثر . لمس بيرد جبهته . كانت حارقة . وأرسل بيرد صرخة صغيرة رغماً عنه .

سأل الشرطي :

ـ ما الأمر؟

أجابت إيميكو :

ـ الطفل مريض . لهذا قررنا المجيء به رغم الضوء المكسور . . . لكننا ضللنا ولم نعد نعرف ماذا نفعل .

ـ إلى أين تريدان الذهاب؟

ترددت إيميكو لحظة قبل أن تقرّر لفظ اسم العيادة . قال لها الشرطي إنها في نهاية شارع صغير أشار إليه بيده ، ثم ، ليؤكد سلطته ثانية ، أضاف :

ـ لكني أميل إلى إرسالكما مشياً إلى هناك ، وتتركان السيارة هنا . . .

مدَّت إيميكو يدها بحركة ساخطة ورفعت قلنسوة الطفل قائلة :

ـ يجب ألا يهتزَّ قدر الإمكان .

ظهرت جسارتها رابحة . أعاد لها الشرطي إجازتها وقال مغمغماً قليلاً :

ـ ما به ، حمًّى في الدماغ ؟ . . . طيّب ، يمكنكما الذهاب . ولكن لا تنسي أن تصلحي ضوءك . . .

قالت إيميكو وهي توقف السيارة أمام العيادة ، وقد عاد إليها ثباتها :

ـ كم هو أبله هذا الشرطي ! حتى أنه لم يسجّل اسمي ورقم السيارة . . .

دخلا العيادة التي بدت مهجورة . صاحت إيميكو :

ـ هل أحد هنا؟

ظهر الرجل القصير المستدقّ الرأس . لم يكن هذه المرة مرتدياً سموكنغ بيضاء بل بذلة فظيعة البقع . نظر داخل السلة كأن بيرد بائع سمك مستعجل وقال لإيميكو بصوت بشوش :

ـ وصلتِ متأخرة جداً ، إيمي . كنت بدأت أفكر أنك كنت تضحكين عليَّ .

أجابت :

ـ ضللنا الطريق .

ـ كنت خائفاً أن تقومي بحماقة . هناك أشخاص إذا قرروا لا يجدون فرقاً بين أن يتركوا طفلاً يموت . . . طبيعياً أو أن يخنقوه بأيديهم . . .

أخذ السلة ، أطلق تعجباً صغيراً ، وقال بالصوت البشوش نفسه :

ـ الصبي المسكين! كأن ليست لديه متاعب كافية دون هذا... إنه يموت من التهاب الرئة!

- ١٣ -

تركا السيارة في مرآب واستقلا سيارة تاكسي . كانا مرهقين ، يسقطان في النعاس ، وفي الوقت نفسه كان شيء مثير غريب ينزع منهما كل رغبة في العودة إلى بيت ايميكو .

توقف التاكسي أمام قنديل غاز اصطناعي ، وعلى الكرة بالحروف الزرقاء اسم : كيكوهيكو . دفع بيرد باب الدار ودخل الأول إلى القاعة الصغيرة ، الضيقة كزريبة ، حيث فقط مبسط بار وبضعة مقاعد فلاحية . كان المكان مقفراً ، باستثناء شاب قصير لحيم ، بشفتي فتاة وعينين حذرتين تشبهان عيني خروف . لزم بيرد بعض الجهد ليتعرف فيه على كيكوهيكو الذي كان صديقه .

صاح الشاب القصير بصوت حاد وعيناه مثبتتان على بيرد :

ـ ولكن ، بشرفي ، إنها إيمي ! . . . وأعرفه ، هذا ! منذ قرون لم أره . . . أما كانوا يسمونه بيرد في ذاك الزمان ؟

قالت إيميكو :

ـ لو نجلس ؟

رؤية كيكوهيكو لم توقظ في بيرد أي انفعال . كان يتهاوى من التعب ولديه انطباع أن لا شيء في العالم من الآن فصاعداً يستطيع بعد أن يحرّك شعوره .

ـ ماذا يسمونه حالياً ، إيمي ؟

- بيرد.
- بلا خداع؟ أيضاً؟ مضت سبع سنوات على الأقل... ماذا تشرب يا بيرد؟
- ويسكي.
- وأنتِ إيمي؟
- أيضاً.

يبدو عليكما الارهاق، كلاكما. مع أن الوقت ليس متأخراً.

أجابت إيميكو:
- لا علاقة لما تفكر فيه. أمضينا نصف النهار في السيارة، نطوف في دائرة.

مدَّ بيرد يده نحو كأسه لكنه لم يلمسها. كيكوهيكو... يجب ألا يتعدى عمره العشرين، ومع ذلك يبدو أكثر شيخوخة مني...

أفرغت إيميكو كأسها دفعة واحدة. ملأها كيكوهيكو وصبّ لنفسه واحدة، ثم استدار نحو بيرد الذي لم يكن يفارقه بعينيه، وسأله:

- هل تتذكرني؟
- طبعاً.

كان لديه انطباع غريب بأنه يتحدث مع صاحب بار مريب، بدلاً من صديق قديم لم يره منذ سبع سنوات.

- تذكر أيام حرب كوريا حين كانوا يعيدون إلى اليابان الجرحى، الملفوفات المساكين؟ وتلك القصص التي كانوا يخبرونها للأولاد في عمرنا الذين جندوهم ليرسلوهم إلى هناك؟ كنت أشعر بهلع رهيب في ذلك الوقت...

كان بيرد يتذكر على الأخص ليلة شجارهما وافتراقهما، تلك الليلة حين صاح به كيكوهيكو قبل ذلك: «بيرد، إني خائف!».

قال محاولاً أن يبعد الطفل عن ذهنه:

- لم يكن ذلك سوى قرقعة.
- بلا شك. لكن تلك القرقعة أحدثت لي أشياء ليست نظيفة جداً...
هل نجحت فعلاً في القبض على ذاك المجنون الذي كنا نبحث عنه؟

- حين وجدته، كان ميتاً. كان شنق نفسه. عثرنا عليه عند الفجر، الكلاب وأنا. كل تلك المشقة لم تفدني شيئاً...

- لا تعتقد هذا يا بيرد. فيما تابعت أنت البحث عنه، كففت أنا عن الاهتمام وهربت وسط الليل -وتبدلت حياتنا كلياً. لم تعد ترافقنا، أنا والذين كانوا مثلي، والتحقت بالمعهد في طوكيو كما أظن؟ أنا تابعت الانحدار وأنظرْ أين أصبحت الآن... لو لم تمض لوحدك تلك الليلة أتصور أن الأشياء كان يمكن أن تكون مختلفة جداً بالنسبة إلي.

سألت إيميكو ببرود:
- تقصد لو لم يتركك بيرد ما كنت أصبحت لوطياً؟

أدار بيرد نظره متضايقاً، لكن كيكوهيكو أجاب بهدوء:
- لا، ليس لهذا أي تعلّق. يكون الواحد لوطياً حين يختار أن يحب واحداً من جنسه. أخذت هذا القرار بملء إرادتي وأنا وحدي إذاً مسؤول عنه.

- أرى أنك قرأت الوجوديين.
- عندما ندير باراً للواطيين يا عزيزتي يجب أن نعرف ما نفعل...

ثم وجه كلامه إلى بيرد:
- أنا واثق من أنك لم تكف عن الصعود أنت، بينما أغرق أنا أكثر فأكثر... ماذا تفعل حالياً؟

- إنك تتصور أفكاراً وهمية عني. كنت ناظر دروس في مدرسة ثانوية وطُردت. لا شيء غير هذا...

- الحقيقة أن بيرد ابن العشرين الذي عرفته كان يبدو أكثر تكبراً. يمكن القول أنك تخاف أنت أيضاً، تحاول أن تتجنب شيئاً ما.

كيكوهيكو الواضح والمراقب الذي يتكلم الآن لم يكن أبداً اللوطي الصغير البلا دماغ الذي كان يعرفه بيرد، كأن انحطاطه علمه الكثير.

قال بيرد:

- معك حق. أنا في القعر. أخاف وأحاول أن أهرب.

قال كيكوهيكو لإيميكو:

- هذا الشخص عندما كان في العشرين كان محصناً ضد الخوف. لا شيء كان يخيفه...

أجاب بيرد:

- لم أعد في العشرين.

- الفرس الصغيرة لم تبق كما كانت، هكذا؟

كان كيكوهيكو يتكلم بنوع من اللامبالاة القاسية. ظهر فجأة كأنه لم يعد يهتم ببيرد وعرض على إيميكو مباراة نرد.

الآن وقد تخفف عنه، أخذ كأسه التي لم يلمسها بعد. هكذا إذاً، بعد سبع سنوات من الفراق كفتهما سبع دقائق من المحادثة ليقولا كل ما لديهما من الكلام... فكر بيرد: لا، لم أعد في العشرين. ومن كل ما كنت أملكه حينذاك لم أنجح في الاحتفاظ إلا بهذا الاسم الطفولي... أفرغ كأسه دفعة واحدة ـ وتقريباً في الحال جعله انقباض عنيف في معدته يتقيأ. مسحت إيميكو المكان بسرعة وقدمت له كأس ماء. كان بيرد ينظر في الفراغ. بماذا حاول إذن أن يحتمي من هذا الطفل المسخ؟ ما الذي دفعه للهرب بعناد هكذا، بسفالة هكذا؟ ماذا لديه إذن، في نفسه، يستحق أن يدافع عنه بهذا الجنون؟ بدا له الجواب بوضوح مرعب: لا شيء! صفر!

نهض بجهد وقال لإيميكو التي كانت تنظر إليه بعين مشوّشة من التعب والكحول:

- سأعيد الطفل إلى المستشفى وأجري له العملية. هذا يكفي، الهرب.

صاحب إيميكو:

- ما الذي أخذك؟ هو وقت الحديث عن العملية!

ـ مذ ولد هذا الطفل لم أكف عن الهرب . يكفي!

ـ الهرب؟ لكنك تعرف ماذا يحدث الآن للطفل . . . وتعرف أننا نحن الاثنين مسؤولان . لاتنسَ أننا قررنا الذهاب إلى أفريقيا . . .

قال بيرد معانداً :

ـ تركت الطفل بين يدي هذا المجهض وهربت . الهرب ، دائماً الهرب . . . أفريقيا ، أتصورها مثل أرض هذا الهرب ، نقطة نهائية ، نهاية خط . . . وأنت أيضاً تهربين . لست سوى فتاة بار تهرب مع لص!

صرخت إيميكو وهي على حافة نوبة عصبية :

ـ أصمت ، بيرد! تعرف أن هذا ليس صحيحاً . قررنا كل شيء سوية ، فعلنا كل شيء سوية!

اتخذ مظهره تعبيراً هو في الوقت نفسه بائس ومتهّم ، وقال :

ـ إذا نظرتُ إلى الأمور وجهاً لوجه بدلاً من أن أدير لها ظهري كما لا أزال أفعل مذ بدأ كل هذا ، فليس هناك سوى احتمال حلين : إما أن أخنق هذا الطفل بيدي ، أو أرضاه كما هو . الحقيقة أني أدركت هذا منذ البدء ، ولكن لم تكن لي الشجاعة لقبوله .

ـ ولكن أخيراً ، بيرد ، تعرف جيداً أن هذا الطفل أصيب بالتهاب الرئة . إذا حاولت أن تعيده إلى المستشفى سيموت على الطريق ، في السيارة . . . وحينئذ ماذا سيحدث؟ سيوقفونك بسهولة . . .

ـ إذا حدث هذا يعني أني قتلته بيدي وأستحق ما سيحصل لي . أعتقد أني مستعد أخيراً لتحمل المسؤولية .

كان يتكلم بهدوء . ويشعر بأنه انتهى أخيراً من الكذب وفي طريقه إلى الإيمان من جديد بنفسه .

امتلأت عينا إيميكو بالدموع . بدت أنها تبحث بيأس عن حجة نهائية وحين اعتقدت أنها وجدتها قالت :

ـ لنفترض أنهم أجروا له عملية وأنقذوا حياته؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ قلت لي بنفسك انه لن يصبح أبداً طبيعياً . ألا تدرك أنك لا تفعل شقاءك أنت وحدك بل شقائي أنا أيضاً؟ أتظنه يستحق هذا يا بيرد؟ أتظن هذا فعلاً؟

ـ إنما أفعل هذا لنفسي . إنه الأمل الوحيد المتبقي لدي لئلا أظل رجلاً يهرب بلا انقطاع من مسؤولياته .

لكن إيميكو كانت ترفض أن تفهم . تمتمت :

ـ بيرد . . . ماذا تفعل بقرارنا الذهاب إلى أفريقيا؟

تدخل كيكوهيكو :

ـ بحق السماء ، إيمي ، تمالكي نفسك! حين يبدأ هذا العصفور بالتفكير في نفسه ، يمكن الصياح بأعلى ما يمكن ، لكنه لا يعود يسمع!

رأى بيرد في عيني كيكوهيكو شيئاً يلمع شبيهاً بالحقد عليه ـ لكن إيعازه كان محقاً بالنسبة إلى هستيريا إيميكو التي عادت فجأة ، كما احتدت فجأة ، المرأة الشابة الهادئة ، السمحة والناعمة ، التي استقبلته حين طلب ملاذاً .

قالت :

ـ عظيم ، بيرد . لا شيء يرغمك على المضي معي . سأبيع البيت وأذهب وحدي إلى أفريقيا . إلا إذا اصطحبت معي الصبي الذي هاجم سيارتي . . . الآن وقد فكرت في الأمر ، أعتبر أني كنت مقيتة معه .

كانت الدموع لا تزال في عينيها ، غير أنها كانت استعادت ثباتها .

أبدى كيكوهيكو تأكيداً :

ـ الآنسة إيمي تمالكت نفسها .

قال بيرد «شكراً» لكليهما . فقالت له إيميكو بنوع من الحنو :

ـ انك تتخطى كل التجارب . وداعاً ، بيرد . انتبه جيداً إلى نفسك .

امتثل بيرد بإشارة من رأسه وخرج من البار .

كان التاكسي الذي ينقله في شوارع مبللة يسير بسرعة مخيفة . فكَّر بيرد :

إذا متُّ في حادث قبل أن أنقذ الطفل أكون عشت سبع وعشرين سنة للاشيء على الإطلاق . . . وملأه هذا التفكير بخوف أكثر حدة من كل المخاوف التي كابدها حتى الآن .

- ١٤ -

انها نهاية الخريف .

حين نزل بيرد الدرج بعدما صافح الجراح ، استقبله أهل زوجته مبتسمين . كانت زوجته بينهم ، والطفل بين ذراعيها .

قال عمه :

- تهانيّ ، بيرد . أتعرف أنه يشبهك ؟

أجاب بيرد في اختصار :

- قليلاً ، نعم .

بعد ثمانية أيام من العملية ، كان الطفل قد بدأ يتخذ هيئة بشرية إلى حد ما .

تابع بيرد :

- لم يكن جرح جمجمته يتعدَّى بضعة ميلليمترات . يبدو أنه يلتئم . سأريك صور الأشعة في المنزل . في الواقع لم يكن فتقاً دماغياً ، ولكن فقط دملة غير خطرة ، كبرَ طابة التنس .

قال البروفسور :

- في أية حال ندين لك بالكثير .

للمرة الأولى أظهرت والدة زوجته شيئاً من حس الفكاهة :

- خلال العملية قدم بيرد كثيراً من دمه حتى أصبح بعد ذلك أصفر كأميرة بعد موعد مع دراكولا . . . صراحة بيرد ، كنت شجاعاً كأسدٍ فتيّ .

كان الطفل ينظر حواليه بعينين لا تميزان جيداً الأشياء بعد، خائفاً من تغير المشهد المفاجىء. مشى بيرد والبروفسور على مهل نحو المخـرج تتبعهمـا المرأتان. قال البروفسور:

- هذه المرة عرفتَ فعلاً أن تواجه.

- الحقيقة أني لم أكفّ عن الهرب، وبالكاد فعلت هذا. ولكن يمـكن القول أن الحقيقة ترغمنا أخيراً على المواجهة... أقصد حتى لو سعينا إلى الكذب على أنفسنا تأتي دائماً لحظة ننتبه فيها إلـى أن هذا غير ممـكن إلـى الأبد. هذا على الأقل ما اكتشفته.

- يمكن العيش في طرق عديدة مختلفة، بيرد. هناك أناس ينتقلون من كذبة إلى كذبة حتى موتهم.

فكر بيرد بعينين شبه مغمضتين في السفينة التي رفعت مرساتها قبـل أيام متجهة إلى زانزيبار، وعلى متنها إيميكو. تصور نفسه، وقد قتل الطفل، واقفاً إلى جانبها، مكان الصبي الذي اصطحبتـه معهـا - صورة من الجحيم مثيرة كفاية... أكان هذا ربما أيضـاً ما يحـدث الآن في عالـم آخـر من عوالـم إيميكو؟ انتفض عائداً إلى مشاكل العالم الذي اختار أخيراً البقاء فيه، وقال:

- ممكن أن ينمو الطفـل طبيعياً، ولـكن ليس مستبعـداً أيضـاً أن يبقـى منقوصاً. هذا يعني أن علي كسب قدر ما يمـكن من المـال لأؤمـن مستقبلـه ومستقبلنا. طبعـاً لا أطلـب منـك مساعدتـي في إيجـاد وظيفـة جديدة بعـد الحماقات التي اقترفتها. قررت أن أتخلى عن التعليم. أفكر أن أعمل كدليل للسياح... لطالما حلمت أن أذهب إلى أفريقيا واستخدم دليلاً محلياً يشرح لي معالمها. إذن سيكون العكـس: سأصبـح أنـا نفسـي دليلاً محلياً للسياح الأجانب الذين يأتون إلى اليابان!

كان البروفسور سيقول شيئاً، لكن الرجلين اضطرا للابتعاد واحدهما عن الآخر لإفساح المرور لصبي يربط ذراعه بحمالة، يتجه به رفاقه نحو الدرج. كان الفتيان يرتدون قمصاناً وسخة ومدعوكة، خفيفة جديداً لهـذا الفصـل.

تعرَّف بيرد، حين استدار ليتتبعهم بنظره، على التنانين المطرزة على ظهر قمصانهم؛ وأدرك أنها الزمرة التي تعاركت معه، ذات مساء من حزيران، حين كان يولد طفله.

قال:

- أعرف هؤلاء الصبية. ولكن يبدو أنهم لم يعرفوني.

أجاب البروفسور بحرارة ودودة:

- هذا لأنك تغيرت كثيراً في بضعة أسابيع.

- تعتقد؟

- أنا متأكد. اسمك لم يعد يلائمك مطلقاً، بيرد...

انتظر بيرد لتنضَّم إليهما المرأتان ونظر إلى طفله بين ذراعي زوجته. حاول، وهو ينحني عليه، أن يرى صورته هو في عيني الطفل. كانت مرآة عينيه رمادية غامقة وشفافة. بدأت صورةٌ تنعكس عليها، غير أنها كانت بعد غامضة إلى درجة أن بيرد لم يعرف فيها نفسه.

فور دخوله إلى شقته نظر إلى نفسه في مرآة حقيقية - ثم فتح القاموس الصغير الذي أهداه إياه السيد ديلشيف قبل إعادته إلى بلده. كان ديلشيف كتب على الصفحة الأولى كلمة تعني «الأمل».

ونوى بيرد أن يفتش كيف، في هذه اللغة الأجنبية، يقولون «الصبر».

ذاكرة الشعوب

المحرر: **الياس خوري**

صدر منها

١ ـ فرديناند أيونو:	الصبي الخادم	كاميرون
٢ ـ كين كيسي:	طيران فوق عش الوقواق	الولايات المتحدة
٣ ـ جاك رومان:	سادة الندى	هاييتي
٤ ـ ب. ترافن:	انتفاضة المشانق	المكسيك
٥ ـ غينوا أتشيبي:	الأشياء تتداعى	أفريقيا
٦ ـ كامارا لاي:	الولد الأسود	غينيا
٧ ـ كمالا ماركاندايا:	رحيق في غربال	الهند
٨ ـ بيتر أبراهامز:	فتى المنجم	أفريقيا الجنوبية
٩ ـ اريش ماريا ريمارك:	ثلاثة رفاق	ألمانيا
١٠ ـ غابرييل أوكارا:	الصوت	أفريقيا
١١ ـ ريجيس دوبريه:	غير المرغوب فيه	فرنسا
١٢ ـ عبداللطيف اللعبي:	مجنون الأمل	المغرب
١٣ ـ اريش ماريا ريمارك:	ليلة لشبونة	ألمانيا
١٤ ـ كارلوس فوانتس:	موت أرتيميو كروز	المكسيك
١٥ ـ غينوا أتشيبي:	مضى عهد الراحة	نيجيريا

روايـة من اليـابان

مسألة شخصية

«في قمة الأدب الياباني اليوم، هناك كنز بورو أوي»، هكذا كتب ميشيما في الستينات عن أوي، الروائي الذي ولد عام ١٩٣٥، ووسمت الحرب العالمية وهزيمة اليابان طفولته في العمق. والذي نال جائزة «أكوتاغاو» وهي أهم جائزة أدبية في اليابان وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

نشر أوي مجموعة من الروايات والقصص القصيرة التي نلحظ بصمات ولادة طفله غير الطبيعي عليها كلها تقريباً. «غذاء التدجين» (٥٨)، نقلها إلى السينما أوشيما عام ٦١، «اغوبي مسخ الغيوم» (٦٤)، «لعبة العصر» (٦٧)، «قولوا لنا كيف ننجو بجلودنا» (٦٩)، «يوم سيتكرم بمسح دموعي بنفسه» (٧١)، حيث البطل هو ميشيما نفسه، «الطوفان الممتد حتى روحي» (٧٣)، «اللعبة العصرية» (٧٩)، «النساء اللواتي ينصتن إلى شجرة المطر» (٨٢)، «استيقظوا يا شباب العصر الجديد» (٨٣)، «كيف تقتل الشجرة» (٨٤).

في «مسألة شخصية»، يقترب كنزبورو أوي من السيرة الشخصية، ليروي بأسلوبه السردي المتوتر أحداث ولادة طفل غير طبيعي، والمعاناة النفسية والجسدية التي تعصف بالأب، داخل توتر الأسئلة الأخلاقية والوجودية.

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م